أقباس من نور الحق

تأليف

فضيلة الأستاذ الشيخ

مصطفى محمد الحديدى الطير

الجزء الثانى

السنــة الحادية عشرة ــ رجب سنــة ١٤٠٠ هـ ــ مايو سنة ١٩٨٠ م





أقباس من نور الحق

تأليف

فضيلة الأستاذ الشيخ

مصطفى محمــد الحديدى الطير

الجزء الثانى

السنـــة الحادية عشرة ـــ الكتاب الخامس

رجب سنة ١٤٠٠ هـ ـــ مايو سنة ١٩٨٠ م

تقـــديم

لصاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور : الحسينى هاشم

الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية

الحمد لله رب العالمين ، والصـــلاة والســـلام على أشرف الخلق أجمعين : ســـيدنا محمد النبى الأمى الكريم ، وعلى آله وصحبه ومن تبع سنته الى يوم الدين •

وبعـــد :

فسلسلة مجمع البحوث الاسلامية ـ التى التزمت بتثقيف أبناء الأمة وارشادهم وتوجيههم، وتقديم كل جديد من الفكر الدينى ابرازا للقيم الاسلامية ، وتبيانا للطرق الواضحة فى التوجيه الخلقى والفكرى والعقلى ـ : يسرها أن تقدم اليوم زادا عظيما ، وثروة جليلة من هذه الثقافة ، وتأخذ بيد القارىء ليعيش مع عالم فاضل غاص فى بحار أنوار القرآن الكريم ـ الذى لاتنقضى عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ـ وبذل عصـــارة فكره ، وأخرج لآلىء من فيوضات الله فى هذا الكتاب العظيم ، فأوضح أمورا خفيت على الكثيرين ، وأجلى حقيقة مبهمات شغلت أفكار بعض المؤمنين وأزال ما ران على الذهن من جهل لأمور متشابهة ، وقضايا هامة فى بحث علمى مركز دائب ، لا يســـتغنى عنه مؤمن، ودراســـة

فاحصـــة ، وتأمل مستنير ، يشفى الصدور ، معتمدا على الحجة الدامغة •

وفقه الله الى الاجابات الشـــــافية عن : مخلوقات الله فى هذا الكون الفسيح •• وعن مذهب النشوء والارتقاء •• والحكمة فى خلق آدم • • وطرد ابليس من الجنة • • والشيطان وجنوده وأول جريمة انسانية على الأرض••والبعث وانكاره •. والتلقيح الصناعى ••وغير ذلك •• بأسلوب جزل شـــيق يجذب القارىء ويشده اليه •

وسيجد القارىء ذلك كله وغيره فى الجزء الثانى من كتاب « أقباس من نور الحق » لفضيلة الأستاذ الشيخ : مصطفى محمد الحديدى الطير ، العالم الجليـــل الذى قدم الكثير من البحوث الاسلامية النافعة •

نسأل الله تعالى : أن يجزل ثوابه ، ويوفقه ، ويمنحه الصحة لقاء ما بحث وأوضح ، وأن ينفع به المسلمين ، فهو ــ سبحانه ــ المأمول والمستعان •

الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية

الدكتور الحسينى هاشم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

الحمد الله الذى أبدع خلقنا ، واليه منتهى رغباتنا وبفضله تحقيق آمالنا ، واليه نفزع مما يخيفنا ، وعلى معونته نعتمد فى كل أمورنا ، ومن نوره نقتبس هدانا ونورنا ، واليه مردنا بعد انتهاء آجالنا ، وعلى عفوه ورحمته نعتمد عند سؤالنا وحسابنا •

والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، وامام النبيين سيدنا : محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه أجمعين •

وبعد : فقد شرف الله الأمة المحمدية بالقرآن العظيم وجعله أساسا لدينه القويم ، وعهد بتبليغه الى خير أصفيائه وخاتم أنبيائه ، سيدنا محمد أبى الزهراء ، وسيد الأتقياء والصلحاء ، فبلغه لأمته أصفى وأعذب من ماء السماء ، وأشهى من كل غذاء ، اختاره الله لخير أمة أخرجت للناس ، وأقام دعائمه على توحيده ومحبته ، وأذل الأديان الباطلة بعزته ، ووضع الملل السابقة برفعه ، وأهان أعداءه بكرامته ، وهدم أركان الضلالة بركنه ، وجعله وثيقا لا انفصام لعروته ، ومتينا لا زوال لدعائمه ومورقا غضا لا جفاف لشجرته ، وباقيا ما بقى الزمان فلا انقطاع لمدته ، ولا نسخ لشريعته ، ومضيئا لا خفوت لضيائه وواضحا لا يشتكى من خفائه •

انه منار الحق : يهتدى به المسافرون فى صحراء الحياة ومنهل عذب دائم الفيضان ، ينهل منه الظماء الواردون ، جعل الله فيه منتهى رضوانه ، وأساس طاعته ، فهو عند الله وثيق الأركان رفيع البنيان ، منير البرهان ، جعله الله بلاغا لرسالته ، وكرامة لأمته ، وربيعا لأهل زمنه ، ورفعة لاعوانه ، وشرفا لانصاره الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

لقد بعث الله به نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم وقد أزفت الآزفة ، وقربت الآخرة ، بعثه ليحول ظلام الدنيا الى نور ، وشدتها الى رخاء ، وشركها الى توحيد ، وظلمها الى عدالة ، وفساد الأخلاق فيها الى صلاح .

بعثه ليكشف للناس نور الحق ، ويزيل عنه ظلام الباطل فقد اختلط الحق بالباطل فى الأديان السماوية ، وشاع فى الناس شرع الهوى ، واحتجب عنهم نور الهدى ، فهذا الهه هواه وهذا اشتبه عليه الأمر فلم يدر السبيل الى هداه ، بعثه وأيده بالكتاب العزيز ، الذى صحح به وقائع الكتب السماوية بعدما شابها التبديل ، وبين الدين الذى ارتضاه منذ القدم لعباده ، بعد ما دس عليه من مختلف الأباطيل ، فمن أنواره تقتبس أنوار الحق ، ومن معينه يرتوى رواد الصدق ، فهو المعيار على كتب السماء ، والحكم الفاصل بين الحق والباطل جعله الله ريا لعطش العلماء ، وربيعا لقلوب الفقهاء ، ودواء ليس بعده دواء ، ونورا ليس معه ظلمة ، وعزا لمن تولاه ، وسلما

لمن دخله ، وهدى لمن ائتم به ، وبرهانا لمن تكلم به ، وعلما لمن وعى ، وحديثا لمن روى ، وحكما لمن قضى •

وبعد : فهذا هو الجزء الثانى من كتابى : (أقباس من نور الحق) وقد اشتمل على بحوث طريفة لم يشتمل عليها الجزء الأول ، وكلها مقتبس من نور الحق ، ونابع من معين الصدق ألا وهو : كتاب الله العزيز ، الذى لاتنقضى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، وهو مستمد أيضا من سنة النبى الأطهر ، الذى أنزل الله اليه القرآن ليبينه للناس •

ومما اشتمل عليه هذا الجزء : أن هذا الكون خلق لنا ولغيرنا ولم يخلق لنا وحدنا ، ففى كون الله سبع أرضين يسكنها مكلفون مثلنا ، قال تعالى : « ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة ، وهو على جمعهم اذا يشاء قدير » (١) وقال سبحانه : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير » (٢) •

وسنرى الحديث عن ذلك مفصلا بأدلة ، وآراء العلماء فيه ، و نرى حديثا شهيا جديدا عن مكان هذه الأرضين وسكانها مما يفتح للقارىء المسلم آفاق المعرفة ، ويسلك به وديانا خضرا يانعة المباحث والأساليب والغايات المشرقة من المعارف التى أشار اليها القرآن العظيم

---

(١) سورة الشورى آية ٢٩
(٢) سورة الطلاق آية ١٢

ومن موضوعاته : مبحث واف عن آدم ، ومــذهب النشوء والارتقاء ، و الأدلة التى تهدم هذا المذهب ،وآراء معاصرى «داروين » فى فساد نظريته .

وقد استغرق هذا المبحث الهام ما يقرب من نصف هذا الجزء ، وقد تعرضنا فيه الى طريقة خلق آدم ، والتوفيق بين ما جاء فى الكتاب والسنة من الكلام عنها ، وبينا لماذا تحولت طينة آدم الى حمأ مسنون ، وأجرينا حوارا فى هذا الشــأن وانتهينا منه الى : أن من خلقه الله بيديه لا يســأل عن تطويره فقد احتفظ الله بسر صنعته ، فعلينا أن نمسك عن الخوض فيه .

وبينا الحكمة فى خلق آدم ، ورأى الملائكــة فى خلافته وذريته ، وبينا الحكمة فى خلقنا بغرائز تميل الى الشر ، وتحدثنا عن أن العلم هو أساس خلافة آدم عليه السلام، وعن كيفية عــرض المســـميات على الملائكة ، وعن ســـجود الملائكة لآدم بعدما تحققوا من تفوقه عليهم فى العلم .

ثم تحدثنا عن طرد ابليس من الجنة ، لما أعرض واستكبر وأبى السجود لآدم ، لأنه خلق من طين ، وبينا فســاد رأيه فى تفضيل نفسه على من خلقه الله بيديه .

وعقبنا ذلك بالحديث عن أمر آدم بسكنى الجنة ، ونهيه عن شجرة منها ، وبيان كيف خلقت حواء ، وتحدثنا عن الجنة التى سكنتها مع آدم : أهى جنة الخلد أم جنة أخرى فى الدنيا ؟

وذكرنا آراء المفسرين فى ذلك ، وأدلة كل رأي ، وبيان الأحوط فى هذه المسألة ٠

ثم ذكرنا آراء المفسرين فى الشجرة التى حرمت على آدم وحـواء ، وعن الحكمة فى تحريمها وابهامها ، وعن أكلهما من هذه الشجرة ، وكيف أكلا منها وهى محرمة عليهما ، وتحـدثنا عن النسيان وأثره فى ذلك ، وكيف اعتبر النسيان معصية فى حقهما ، وعن عصمة الأنبياء من المعاصى ٠

ثم بينا الكيفية التى أغرى فيهـا الشيطان آدم وحواء ليأكلا من الشجرة بعد طرده من الجنة ، ولماذا لم يحترس منه آدم مع أنه أعلنه بعداوته له ولذريته ؟ وذكرنا عناصر وسوسته له ، وأثر الوسوسة فيهما ، وعتاب الله لآدم وحواء ، واعتذارهما له ـ سبحانه ـ عما حدث منهما ، واهباطهما الى الأرض والتوبة عليهما واجتباءهما ، ولماذا أعظم اللـه خطيئتهما ؟ ولماذا جعلت الجنة مسكنا أوليا لهما قبل أن يهبطهما الى الأرض التى هى دار خلافتهما ٠

وتحدثنا عن الشيطان وجنوده فى حياة الانسان ، والحكمة فى خلقه ، وتكلمنا عن الجن وحقيقتهم ، وأنهم مـكلفون مثلنا ، وأن رسولهم هو نبينا : محمد صلى الله عليه وسلم ، وبينا كيف مارس آدم حيـاته على الأرض ، وهل هو آدم واحد أو أوادم متعددون ؟ ، كلما انقرضت ذرية أحدهم ، خلق الله آدم آخر من جديد على نسق سالفه ، وبينا آراء العلماء فى ذلك ، ورجحنا أنه آدم واحد ٠

وستجد فى أبحاث آدم عجائب كثيرة كشفناها ، وأسئلة كثيرة أجبنا عنها ، وأمورا جديدة نطرحها على الفكر لأول مرة ، وبأسلوب سهل ممتنع مع عمقه وغرابته .

وبعد انتهائنا من الحديث عن المرحلة الأولى لخلق البشر ، عقبناها بالكلام على المرحلة الثانية فى تكوين الانسان ، وهى : مرحلة تكوينه من ماء مهين فى قرار مكين ، داخل ظلمات ثلاث ، وقد شرحنا فى هذه المرحلة أطوار تكوين الجنين من الناحية العلمية التجريبية ، وبينا أحجام الجنين وأوزانه وأطواله فى مراحله وأطواره المختلفة، ووفقنا بين النصوص القرآنية والنبوية والواقع التجريبى ، وشرحنا المراد من قوله تعالى : « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » ، وتحدثنا عن النهاية التى تنتظر كل انسان بعد أن يأخذ حظه من دنياه ، وهى كما قال سبحانه : «ثم انكم بعد ذلك لميتون . ثم انكم يوم القيامة تبعثون » .

وكل ذلك كتب بلغة علمية واضحة الأسلوب ، كاشفة عن حقائق لم يسبق للمفسرين التحدث عنها — فيما اعلم — رغبة فى أن يعيش القارىء المسلم غير بعيد عن الحقائق العلمية ، مع ثقة بأن النصوص الشرعية لاتجافيها .

ثم تحدثنا عن التلقيح الصناعى للمرأة فى نظر الاسلام ، والعقوبة التى يجب تطبيقها على من يمارسه ، وأثره فى عفة المرأة .

كما تحدثنا عن التلقيح الصناعى فى أنابيب الاختبار ورأى الدين فى ذلك ، وكشفنا عن المآسى التى تترتب عليـــه •

ثم تحدثنا عن أول جريمة انسانية على الأرض بين ولــدى آدم ، وأن المرأة هى السبب فى اقترافها •

وتحدثنا عن القربان فى اللغــة والدين ، وكيف قبل قربان أحد الولدين ورفض قربان الآخــر ، وبينا موقف كليهما بعــد القربان ، وأن أحدهما هدد الثانى بقتله ، والثانى ترفق فى خطابه ، وبين له أنه لا يمد اليه يده ليقتله ان بدا منه ذلك ، وأن ذلك اللين لم ينفع مع الأول ، بعد أن امتلأ قلبه حقدا على أخيه ، فقد نفذ وعيده فقتل أخاه المستقيم ، وبينا حكم الشريعة فى ترك الدفاع عن النفس ، ثم تحدثنا كيف عرف القاتل القتل ، ولم يسبق لــه رؤية مثل هذه الجريمة ، وكيف عرف الدفن ليتخلص من آثارها •

ثم تحدثنا عن البعث بعد الموت من حيث امــكانه ويسره على الله تعالى ، وأنه واقع مستقبلا ولا بد ، وأنه سبحانه ضرب اليقظة بعد النوم مثلا للبعث بعد الموت ، وأنه جل وعلا يذكرنا بذلك كل صباح لعلنــا نعتبر •

ثم ذكرنا صورا من البعث بعد الموت حدثت فى دنيانا •

أولها : احياء الطيور الأربعة لابراهيم عليه السلام ، بعد أن ذبحها وقطعها وخلط أجزاءها ، ثم جعل على كل جبــل منهن جزءا ، ثم دعاهن ، فاجتمعت أجزاء كل منها فأتينه سعيا •

وثانيتها: احياء الرجل الذى مر على قرية خاوية على عروشها فقال : « أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه » وفصلنا هذه القصة تفصيلا طريفا ، يستتبع العبرة .

وثالثتها : بعث أهل الكهف والرقيم ، وقد بينا نشأتهم وعصرهم ، والملك الذى هربوا من ظلمه ، والملك الذى بعثوا فى عهده ، وتحدثنا عن حالهم فى الكهف مدة ثلاثمائة وتسع سنين ، وعن كلبهم وكيف لحق بهم ، وعن حاله معهم ، كما تكلمنا عن يقظتهم وما حدث بعدها ، وعن عددهم والخلاف فيه ، ورأى « ابن عباس » فى ذلك .

ثم تكلمنا عن خلاف المفسرين والمؤرخين فى مكان كهفهم وذكرنا أن منهم من يقول : انه فى الاردن ، وذكرنا أن الأستاذ رفيق الدجانى الأثرى الأردنى أخرج كتابا سنة ١٩٦٦ تقريبا يقول فيه : « انهم اكتشفوه فى الأردن » وناقشنا هذا الكشف مناقشة علمية تسر القارىء ، ثم ذكرنا الآراء المقابلة ، ومنها أن الكهف فى «أفسوس أو طرسوس » بأرض الروم (الأناضول) ومنها أنه بالأندلس جهة غرناطة ، وان ابن عطية المفسر الأندلسى رآهم هناك قرب مدينة قديمة تسمى « دفيوس » وقريب منهم بناء رومى يسمى « الرقيم » وكان ذلك سنة أربع وخمسمائة هجرية ، وأكثرهم قد انجرد لحمه ، وبعضهم متماسك .

ثم تكلمنا عن حكم بناء المساجد فوق القبور ، وذكرنا أنه لا يصح الاستدلال بقصتهم على جوازه فى شرعنا .

وتكلمنا عن رأى لبعض العلماء يفيد أن الرقيم لجماعة أخرى غير الذين ذكرت قصتهم فى القرآن الكريم ، وهؤلاء هم الثلاثة الذين أووا الى غار ، فوقعت صخرة على بابه فأغلقته ، فلما حبسوا فيه دعوا الله تعالى بما قدموه من حسنات لوجهه ففرجها عنهم ، وقد بينا ضعف هذا الرأى .

ثم تحدثنا عن ذى القرنين فذكرنا آراء المفسرين والمؤرخين فيه ، وأن منهم من يقول : انه هو « الاسكندر المقدونى » ، ومنهم من يقول : هو « أبو كرب بن عمير بن امرىء القيس » فكلاهما دانت له الدنيا مشرقا ومغربا ، وكل من صاحبى الرأيين يؤيد ما يقوله بما يراه من الحجج ، وقد ذكرنا أن الجمهور مع الرأى الأول .

وتحدثنا عن رحلة « ذى القرنين » ، أولا الى المغرب ، وثانيا : الى المشرق ، وثالثا : الى جبلين يخرج من بينهما قوم يفسدون فى الأرض هم : (يأجوج ومأجوج) فرغب اليه أهل هذه المنطقة أن يقيم بين الجبلين سدا منيعا ، يحبس عنهم شر هؤلاء المفسدين ، وعرضوا عليه أن يدفعوا له تكاليف هذا السد ، فأبى وقال : « ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما . آتونى زبر الحديد . . » الآيات ، وبنى لهم سدا حجارته مكعبات من الحديد ،وقد أوقد نارا بينها فالتهبت واتقدت ثم أفرغ عليه نحاسا مذابا ليصبح أملس : « فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا » .

وستعلم من هذا البحث مقدار ما كان لدى هـذا الملك من مقدرة هندسية ، وعلوم كونية ، وعبقرية عسكرية ، وحكمة سياسية ، وستعلم أين يوجد « سد ذى القرنين » ، وتحديد مكانه طولا وعرضا على خريطة الأرض ، وأنه هو : «سد باب الحديد» وراء جيحون على مقربة من « ترمد » وليس هو سد باب الأبواب بأرمينية كما جنح اليه بعض المؤرخين •

وستجد فى هذا البحث بيانا كاشفا لحقيقة يأجوج ومأجوج وألوانا من شرورهم فى الأرض ، وأين هم الآن ، وما صنعوه فى عهد الاسلام ، كما تجد فيه بيانا لرحلة عربية فى عهـد الخليفة العباسى: « الواثق بالله » لاكتشاف سد يأجوج ومأجوج، وستجد فيها من غرائب الأخبار ما يثير انتباهك ، ويدعوك الى التعجب مما كان عليه هؤلاء العظماء من علوم الهندسة والمقدرة الفنيـة التى يصغر بجانبها كثير من فنون الهندسة الحديثة •

وقد حكينا لك نبذا من حيل « الاسكنـدر » فى حـروبه وألوانا من سياسته ، وكان يستشير « أرسططاليس » فيما يهمه من الأمر ، ولهذا كان لا يتخذ قرارا الا بعد دراسة مستفيضة وكان النجاح دائما مآله فيما يهدف اليه •

ثم تحدثنا عن محاولة « أبرهة الأشرم » الحبشى القضاء على البيت الحرام ، رغبة فى صرف العرب الى المسيحية ،وأن يكون حجهم الى كنيسة صنعها لهم فى « صنعاء » ، سماها : « القليس»

وقد بناها من حجارة قصر الملكة : « بلقيس » بعد أن نقضه ،وبينا كيف انتقم الله لبيته الذى أعده كعبة للمسلمين ، حيث أرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل • فجعلهم كعصف مأكول » •

ونرجو أن تنتفع بما تقرأ ثقافة وذكرى • « سيذكر من يخشى » •

والله تعالى ولى التوفيق

المؤلف

مصطفى محمد الحديدى الطير

السماوات والأرضون السبع

نقرأ فى آخر سورة الطلاق قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما » •

ولقد دل هذا النص الكريم على أن كلا من السموات والأرض سبع فماذا يراد بالسموات السبع وبالأرضين السبع ؟•

فسر المتقدمون السماوات السبع بالأفلاك السبعة ، والأفلاك جمع فلك بفتح اللام ، وهو مجرى النجوم — كما فى القاموس •

ونقل الآلوسى فى تفسير قوله تعالى : «ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم » (١) : عن أرباب الأرصاد : أن الأفلاك تسعة ، وهل هى الاسماوات ؟ — كذا قالوا —

ولهذا يرى بعض العلماء : أن تخصيص العدد بالسبع ، لا ينفى الزيادة عليه ، وممن قال بذلك : الامام الرازى ، وقال السيالكوتى : انه الحق •

ونحن نقول : ان تلك نظرة ساذجة للعالم العلوى ، فلقد أثبتت المناظير البعيدة المدى : (التليسكوبات) أن فيه أكثر من مليون مجرة، وأن كل مجرة تحتوى على ملايين الشموس ، وحول كل

---

(١) سورة البقرة آية ٢٩

شمس منها سياراتها التى تشبه السيارات الدائرة حول الشمس فى مجرتنا التى نعيش فيهـــا ٠

ومن العجيب أن خلق المجرات لم ينقطع بعد ، فأحيانا يرى الراصدون مجرات جديدة لم يكونوا قد رأوها من قبل ٠

ولا شك أن كل مجرة لها فى فضاء الله فلك تجرى فيه ، فلو كانت السموات هى تلك المجرات أو الأفلاك التى تجرى فيهـــا المجرات ، لمـــا كانت سبعا ، ولا سبع طبقات لأن كل مجرة طبقة على حيالهـــا ٠

ولا ينفع القول بأن العدد لا مفهوم له لأن هذا الجواب قد ينفع فى الأعداد المتقاربة ، مثل سبع وتسع ، أما سبع من الآحاد مع أكثر من مليون فالبون بينهما شاسع ، فلا يمكن الاعتماد على جواب أن العدد لا مفهوم له ٠

وقد يقال : انه قد وقر فى أذهان الناس أن السموات سبع اما تأثرا بعددها فى الكتب السماوية السابقة ، أو بعلماء الحكمة القدامى الذين كانوا يزعمون أن السموات سبع ، لأنها مدارات السيارات السبع ،فجاء القرآن موافقا لهذا العرف أو لذلك ، حتى لا يكذب الناس ربهم ورسوله فيما يجهلون ٠

وفى ذلك المعنى أخرج البخارى عن على موقوفا : « حدثوا الناس بما يعرفون ، تريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ » وجـــاء فى مقدمة صحيح مسلم عن ابن مسعود : « ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم الا كان لبعضهم فتنة » ٠

ولكنى لا أرى داعيا لسلوك هـذا المسلك أو ذاك ، والذى ينبغى أن نفعله أن السموات سبع كما جاء فى عدة آيات من القرآن الكريم ، وأن تلك السموات السبع غير المجرات بنجومها وكواكبها وغير مداراتها ، ودليلنا على ذلك من القرآن الكريم نفسه ، فقد جاء فى سورة الملك قوله تعالى : « ولقـد زينا السماء الـدنيا بمصابيـح ... » الآيـة .

ومعناها ولقـد زينا السماء الأولى بالنجوم والـكواكب المشابهة للمصابيح فى الاضـاءة .

فهذا النص الكريم واضح الدلالة على أن الكواكب والنجوم زينة للسماء الدنيا ، أى : القريبة منا ، ولا شك فى أن الزينة غير ما تزينه ، فالعقد فى صـدر الفتاة زينة لصدرها ، وليس هـو صدرها ، وعلى هذا لا تكون الكواكب والنجوم ، ولا مداراتها هى السموات فى عرف القرآن الكريم ، بل هى زينة للسماء الأولى ، ولا يقتضى كونها زينة لها أن تكون مغروزة فيها كالفص فى الخاتم بل هى زينة لها فى رأى العين ، وما السماء الأولى الا واحدة من السموات السبع لا يعلم حقيقتها الا الله تعالى ، فان المناظـير البعيدة المدى لم تصل بعد الى كشف حقيقتها ، وان كانت تظهر شيئا آخر غـير المجرات لا يزال مجهـولا للبشر ، ويظن أنـه السمـوات .

الأرضون السبع

أما الأرضون السبع فماذا عسى أن تكون ؟ •

قال قوم : انها أرض واحدة ذات سبع طبقات كطبقات البصلة •

وقال آخرون : انها أرض واحدة ذات أقاليم سبعة هى القارات السبع •

ولكننا لا نميل الى وحدة الأرض مع تعدد طبقاتها أو قاراتها ، بل نرى تعددها الذاتى ، فان هذا الكون العظيم،لايصح فى العقل أن يخلق من أجل هذه الكرة الأرضية الواحدة وأهلها ، بل خلق من أجل عدد من الأرضين ، كل أرض منها مسكونةبمكلفين يثابون على الطاعات ويعاقبون على المعاصى ، ويتأملون فى آيات الله وآلائه ، فتنبعث حناجرهم بتمجيد صاحب هذا الملكوت العظيم ومبدعه جل وعلا •

وقد ذكر الآلوسى فى تفسير هذه الآية : أن الجمهور يرى تعدد الأرضين ذاتا ، فقد نقل عنهم أنها سبع ، وأن فى كل أرض سكانا لا يعلم حقيقتهم الا الله ، وعن ابن عباس : أنهم ملائكة أو جن •

وأخرج ابن أبى حاتم وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الايمان ، وفى الاسماء والصفات من طريق

أبى الضحى عن ابن عباس أنه قال فى الآية : (سبع أرضين ، فى كل أرض نبى كنبيكم ، آدم كآدم ، ونوح كنوح ، وابراهيم كابراهيم ، وعيسى كعيسى) — قال الذهبى : اسناده صحيح — ولكنه شاذ ، لا أعلم لأبى الضحى متابعا عليه .

وقال الألوسى تعليقا عليه : لا مانع عقلا ولا شرعا من صحته ، والمراد أن فى كل أرض خلقا يرجعون الى أصل واحد رجوع بنى آدم فى أرضنا الى آدم عليه السلام ، وفيهم أفراد ممتازون على سائرهم كنوح وابراهيم وغيرهما فينا ! اهـ .

ويدل لكون الأرضين سبعا من السنة ، ما أخرجه البخارى وغيره عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه كان يقول : « اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن .. » الحديث .

ونقل الألوسى عن الجمهور : أن أهل هذه الأرضين يشاهدون السماء من كل جانب من أرضهم ، ويستمدون الضياء منها كالحال عندنا فى الأرض التى نحيا عليها ، ومال القرطبى الى تصحيح رأى الجمهور .

ونحن نؤيد هذا الرأى ، ونزيد عليه أنه يمكن أن تكون هذه الأرضون السبع ، سبعة أنواع ، كل نوع منها أرضون كثيرة ذات تكوين وجو متماثلين ، فمنها نوع يسكنه من هم على شاكلة الانسان ، ومنها نوع يسكنه خلق آخر لا يعلمه الا الله .

ويشهــد لصحة هــذا قولــه تعالى فى سورة آل عمران :
« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » الآية (١٣٣) فاذا كانت الجنــة عرضها كعرض السماء والأرض ، فلابد أنها مخلوقة للطائعين من أهل السموات السبع وأهل أنواع الأرضين السبع على النحو الــذى أوضحناه وليست مخلوقة لسكان أرض واحدة ، أو لسكان سبع أرضين نحو أرضنا ، اذ لا حاجة للطائعين فيها الى هذه المساحة الهائلة والله تعالى أعلم .

آدم ومذهب النشوء والارتقاء

الكلام على مـــذهب النشوء والارتقاء من الخلية الى آدم عليه السلام طويل نلخصه فيما يلى :

يقول أصحاب هذا المذهب : ان الخلية أو الأميبيا هى أصل الحيوانات ومنشؤها حتى الانسان ، وذلك أن الأميبيــا تطورت الى الاسفنج ، ثم نشأت الحيوانات الرخوة من الاسفنج بطريق الارتقاء ، ثم الحيوانات القشرية ، ثم الفقريات ، ثم الأسماك ، ثم الزواحف ، ثم الطيور ، ثم الثدييات ، ثم الانسان •

ويعرف هذا التطور عنــدهم بالتطور العضوى ، وتنسب هذه الفكرة الى فلاسفـــة الاغريق القــدماء ، من أمثال أرسطو وغيره •

وقد تبناها طائفة من الباحثين فى العصر الحــديث ، منهم داروين وأتباعه الذين وصلت مزاعمهم الى أن أصل البشر (آدم) منبثق عن القردة السيمانية •

وقد انقسم أصحاب هذه النظرية الى قسمين :

قسم يقول : ان هذا التطور والانقسام الى فروع وفصائل نتيجــة لتباين البيئات والظروف ، وهو ذاتى بحت ، فليس لغير البيئـــة والانتخاب الطبيعى تأثير على هـــذا التطور والانقسام ويقول : ان هـــذا التطور عملية بطيئة جدا ، تحدث على مــدى

الألوف أو الملايين من السنين ، فهى ليست تجربة كيماوية يمكن اجراؤها فى المعمل ، وانما هى مندرجة فى بطء شديد •

ويقول أصحاب هذا الرأى : ان هذا التطور الذاتى المتأثر بالبيئة والظروف ، يمكن أن تنشأ عنه أشكال جـديدة عبر آلاف بل مـلايين السنين ، ويمكن شرح ذلك بمثال الزرافة ذات العنق الطويل ، فان طول عنقهـا ناشىء عن ظروف البيئـة ، وتأثيرها المستمر عليها حتى استطال عنقها ذاتيا ، فلقد شاهدت الحيوانات طويلة الأعناق ، تجد من طول عنقها فرصة الحصول على غذائها من أوراق الأشجار العالية ، فأثر ذلك عليهـا ، حتى طال عنقها أكثر من الحيوانات طويلة الأعناق التى كانت تريـد اللحاق بها كما أثر فى نسلها ، مما أدى الى نوع الزراف طويل العنق ، الذى لا يماثله فى طوله حيوان آخر كان يريد اللحاق به ، وكان هـذا التطور بعد آلاف بل ملايين السنين — كذا قالوا —

ويتزعم هذا القسم داروين ، وان كان لا يؤمن بأن نظريته هذه بلغت حد اليقين ، فهو يقول : ان شرحه لهـذه النظرية ليس نهائيا ، وقد يثبت أن ما قاله هراء ، ولكنه يرجو أن يظل الهيكل ثابتـا •

ومعلوم أن داروين لا يؤمن بالله ، بل بالطبيعة ، وسيأتى الكلام على فساد نظريته •

والقسم الثانى : يرى هذا الرأى بعينه ، ولكنه لا يرى أن التطور العضوى ذاتى ، بل بفعل الله وخلقه •

ويقول أصحاب هذا الرأى : ان يد اللـــه الهادية هى التى فعلت هذا التطور •

وممن قال بذلك المفكر : (جورج كوفيه)، وبعض المفكرين المصريين المعاصرين ، حتى قال بعضهم : ان آدم نشأ فى الأرض خلية ، وقد تدرج منها عبر خمسة آلاف مليون سنـــة حتى وصل الى أحسن تقويم بهداية الله وتطويره •

ويقول أصحاب هذا الرأى : ان الترقى بالحوافز الذاتية تبعا للبيئة ، وبدون يـــد هادية لا سبيـــل الى الاقتناع به ، وانما تم بقدرة الله وهدايته •

وهناك : قسم ثالث من عقلاء المفكرين ، لايرون التطور بالحوافز الذاتية ، ولا يؤمنون بمـــذهب الترقى والتطور ، بل يقولون : ان كل حيوان خلقه الله خلقا خاصا قائما بذاته ، غير منبثق عن حيوان أدنى منه ، وان الانســـان خلقـــه الله كذلك دون أن يكون متطورا عن القردة السيمانية ، كما يقوله داروين •

وهذا هو الرأى الحق الذى يقـــره الاســـــلام ، وجميع الأديان السماوية ، أما الرأيان الأولان فانا نقول فى أصحابهما ما قاله الله تعالى : « أشـــهدوا خلقهم ســـتكتب شــــهادتهم ويسألون » (١) •

---

(١) سورة الزخرف ــ الآية ١٩

نظرية داروين فاسدة

كثير من الفلاسفة لا يقرون داروين على نظريته فى النشوء والترقى الذاتى ، المنبعث عن البيئة والظروف ، دون يد هادية وتأثير للخالق الفعال ، وحسبه فى ضعفها أنه ليس واثقا منها ، بل يتوقع من يثبت أنهـا هراء ، وسـنذكر فيما يلى آراء بعض الفلاسفة المعارضين :

١ — يقول الدكتور : (جوستاف جولبر) : يكفى لابطال نظرية داروين أن يتأمل الانسان الحشرة ، فانها ظهرت فى أقدم العصور فى الحياة الأرضية ، فانها تنقلب من حال الدودة الى حشرة طائرة ، ولاتأثير لشىء عليها من الخارج ، كما أن الهوة عميقة بين الحالة الأولى — وهى كونهـا دودة — وبين الحالة الثانية — وهى كونها حشرة طائرة ، وهى هوة تضيع فيها جميـع النظريات الداروينية الماركسية ، فالحشرة أدت شهادة حسيـة ضـد مـذهب داروين ، كما أثبتت عجزه عن تفسير غرائزهـا الأولية .

٢ — ويقول (فون باير) مؤسس علم الأجنـة : ان الرأى القائل ان النوع الانسانى متولد من القردة السيمانية ، هو بلا شك أدخل رأى فى الجنون ، قاله رجل على تاريخ الانسانية .

٣ — ويقول (دوفرى) : ان التحـولات الفجائيـة هى القاعدة فى عالم الحيوان والنبات ، وقد أظهر هـذه الحقيقـة (جوفر ، وسـان هيلى ، وكوب) وثبت أن الظهـور الفجـائى

للأنواع الكبيرة الرئيسية ، كالزواحف والطيور وذوات الثدى كان فى الأرض الجيولوجية ، ومتى ظهرت حصلت على صفاتها الكاملة .

٤ — ويقول البروفسور جو هانز : ان الصلة بين القرد والانسان مفقودة — ولولا ضيق المقام لذكرت آراء سواهم .

أقول : ومما يقلب هذه النظرية رأسا على عقب ، أن اثنين من عمال المناجم فى روما بايطاليا ، عثرا على هيكل عظمى بدون رأس ،لانسان يجلس القرفصاء ، بداخل كتلة فحمية على عمق (٦٩٠) قدما من سطح الأرض ، وقدر عمر هذا الهيكل بأحد عشر مليونا من السنين ، وقد ذكرت هذا الخبر جريدة الشعب المصرية القديمة فى عددها الصادر فى ٥ / ٨ / ١٩٥٨ م ، فكيف ساغ لداروين وأشياعه أن يهرفوا بما قالوه واهمين .

على أن بعض المفكرين الألمان قالوا عكس نظرية داروين فزعموا أن القرد أصله انسان انحط عن انسانيته الى صورة القردة ، وهو ما يعبر عنه بالمسخ ، وهو ظاهر قوله تعالى لطائفة من اليهود : « كونوا قردة خاسئين » وان كان بعض المحققين يحملون الآية على أنهم فى أخلاق القردة وأفكارها المنحطة ، لا أنهم مسخوا قردة على الحقيقة .

فبأى النظريتين يأخذ المفكر ؟

الحق أقول : كل منهما على غير أساس برهانى ، والرأى اذا فقد الدليل كان فى حكم العدم .

كيف خلق آدم ؟

نقرأ القرآن العظيم ، فى خلق آدم عليه السلام ، فنجده تارة يقول : انه خلق من تراب ، كما فى قولــه تعالى فى سورة آل عمران : « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ٥٩ » وقولــه تعالى فى سورة الحج « يأيها النــاس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب •• » الآية ٥ أى : فانا خلقنا أباكم آدم من تراب •

ونجده تارة أخرى يقول : انه خلق من طين ، كما فى قوله تعالى فى سورة الأعراف حكايــة عن ابليس : « قال خلقتنى من نار وخلقتــه من طين ١٢ » أى : وخلقت آدم من طين ، وكما فى قوله تعالى فى سورة المؤمنون : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ٤ » وكما فى قوله فى سورة الصافات : « انا خلقناهم من طين لازب (١١) » أى : من طين لاصق •

ونجــده تارة ثالثة يقول : انــه خلق من صلصال من حمأ مسنون ، كما فى قوله تعالى فى ســورة الحجر : « واذ قال ربك للملائكــة انى خالق بشرا من صلصال من حمــأ مسنون (٢٨) فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين (٢٩) » •

ونجده تارة رابعة يقول : انه خلق من صلصال كالفخار ، كما فى قوله فى سورة الرحمن « خلق الانسان من صلصال كالفخار (١٤) » •

فكيف نوفق بين هذه النصوص ؟ •

والجواب : أن آدم أصله كان ترابا متفرقا ، فعجن بالماء فصار طينا متجمعا ، ثم اسود هذا الطين وأنتن فصار حمأ مسنونا أى : طينا أسود متغير الرائحة ، وقال ابن عباس : هو التراب المبتل المنتن •

ثم جف هذا الحمأ المسنون حتى صار صلصالا كالفخار فالصلصال : هو الطين اليابس الذى له صلصلة وصوت اذا نقرته ولذا شبهه بالفخار ، وهو الطين بعد طبخه بالنار •

ومن العلماء من فسر الصلصال بالطين المنتن ، وهو قول مجاهد ، واختاره الكسائى ، وهو مأخوذ من قول العرب : صل اللحم اذا أنتن ، مطبوخا كان أو نيئاً ، فاذا قيل (صلصال من حمأ مسنون) فمعناه : أن طينة آدم التى خلق منها كانت منتنة ، وقد سلت وانتزعت من حمأ مسنون ، أى : طين أسود منتن ، فاذا وصف الصلصال بأنه كالفخار ، فمعناه : أن هذا الطين المتغير الرائحة جف ويبس وأصبح كالفخار •

هذه خلاصة ما جاء عن المادة التى خلق منها آدم فى القرآن الكريم ، وفقنا بين نصوصها ، وقد عرفت أنها لا تعارض بينها فان كل اسم منها غير التراب ، يتبع حالة طرأت على ذلك التراب فتغير الاسم بسببها ، والأصل فيها واحد وهو التراب •

لماذا تحولت طينـــة آدم الى حمأ مسنون ؟

قد يسأل سائل فيقول : لماذا تحولت طينـــة آدم الى حمأ مسنون ، أى طين أسود كريه الرائحة ، أليس الطين المنتن يكون فيه دائما بكتريا وخلايا حية لا ترى الا بالمجهر (الميكروسكوب) فان كان الأمر كذلك ، فهل حول الله طينة آدم الى حمأ مسنون لينشىء فيــه بكتيريا أو خــلايا حيــة لتكون أساسا لخلق آدم عليه السلام ؟ .

ثم يتابع السائل تأمــلاته فيسأل مرة أخرى قائلا : أليس الله يقول : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة (١) من طين » ؟

فلم لاتكون تلك السلالة المستلة أى : المستخلصة من الطين هى الخلايا الحية التى أوجدها الله بقدرته فى الطين المنتن ، لتكون أساسا لخلق آدم عليه السلام ؟ .

ثم يتابع السائل تأملاته فيقول : أى مانع من أن يكون المقصود من : « سلالة من طين » فى الآية الكريمة ، تلك الكائنات الحية التى أوجدها الله فى الحمأ المسنون ، ليكون خلق آدم منها على نحو خلق ذريتــه من الكائنـــات الحيـــة فى نطف الرجـــال

---

(١) السلالة بضم السين ما انتزع من الشىء واستخلص منه برفق ، من السل وهو الانتزاع والاستخلاص برفق وقد تطلق على الولد لأنه مستخلص من أبويه ، كمـــا يقـــال له وللشراب الخالص سليـــل : ا هـ من القاموس .

وبويضات النساء ، ولذا اجتمعا فى الآية الكريمة : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين • ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين » ليتنبه المسلم من اقترانهما الى أن الأصل والفرع نشآ من الكائن الحى ، والفرق بينهما أن الكائن الحى فى آدم سلالة وخلاصة منتزعة من الطين ، والكائن الحى فى ذريته سلالة مستخلصة من نطفة الرجل وبويضة المرأة ! ؟ •

ثم يتابع السائل تأملاته فيقول : تأمل قوله تعالى : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين » (١) •

لايشعر هذا مع النصوص الأخرى ، أنه تعالى خلق من الحمأ المسنون أساس خلق آدم وهو الخلايا الحية ، ثم أجرى عليه التصوير بعد أن أجرى على تلك الخلايا الأطوار التى تسبق التصوير ، ألا يشعر بذلك قوله تعالى فى سورة نوح : « مالكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا » فآدم وذريته كل منهم خلق أطوارا ، فأطوار خلق ذريته : طور النطفة فالعلقة فالمضغة فالتصوير ونفخ الروح ، وأطوار خلق آدم لايمكن أن تكون الا ماذكرنا من الخلايا الحية وما تلاها من الأطوار أما كونه ترابا فطينا فحمأ مسنونا فصلصالا ، فانه لا يصلح أن يسمى تطويرا فى عرف القرآن العظيم ، بل ولا فى عرف الناس •

---

(١) سورة الأعراف الآية ١١

ثم يقول السـائل : ان هذا الكلام ليس من نوع مذهب النشوء والترقى الذى ذهب اليه داروين وأتباعه ، بل مخالف له كل المخالفة فانه يقول : ان كل الحيوانات نشأت من الخلية وانها ترقت وتنوعت ذاتيا بعضها من بعض ، تبعا لظروف البيئة وبالحوافز الذاتية على ما تقدم شرحه ، وان القرد ترقى ذاتيا فنشأ عنه الانسان ، وان كل ذلك بالطبيعة ودون تدخل من الله فهؤلاء لايؤمنون بالله تعالى !

أما ما افترضته فى سؤالى فهو غير ذلك تماما ، فعقيدتى : أن كل حيوان خلقه الله تعالى خلقا خاصـا به ، حسب سننـه التى أجراها الله عليـه ، من غير ترق من نوع أدنى الى نوع أعلى ، وأن خلق آدم على صورته الانسانية ، ليس فيه ترق من نوع أدنى الى نوع أعلى ، وبعبارة أخـرى ليس فيه ترق من القردة الى هذه الصورة الآدمية الجميلة ، بل فيـه خلقه من الخلايا الحية التى أنشأها الله فى الحمأ المسنون ، ومثله فى ذلك مثل ذريتـه فقد خلقوا من الخلايا الحية الناشئـة عن تلقيح الحيوان المنوى للبويضة .

والفرق بين آدم وأولاده : أن خلاياه الحية احتضنها الحمأ المسنون ، وخلايا أولاده احتضنتها الأرحام ، وكل ذلك بفعل الله تعالى ومشيئته ، فليس فى ذلك شائبة من مذهب داروين .

أما مدة حضانة أصل آدم ، فلا بد أنها تناسب تكوينه ، وقد تكون كمدة تكوين الجنين فى بطن أمه ، وقـد تكون أكثر أو أقل

ولا يمكن تحديدها الا بالنص من الكتاب أو من السنة ، ولا نص فى ذلك .

ثم يتابع السائل أسئلته فيقول : أليس هذا الذى قلته هو الملائم لقوله صلى الله عليـــه وسلم : « كنت نبيا وآدم بين الماء والطين » فان هذا الحديث يدل على أن آدم ظل يتنقل فى أطواره بين الماء والطين حتى أصبح انسانا سويا فى أحسن تقويم ، ومما يساعد على هـــذا الفهم قوله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » ؟

تلك هى الأسئلـــة التى يمكن أن تطرأ على ذهن الباحث فى النصوص .

ونحن نقول ردا على تلك الافتراضات : انها فعلا مخالفـــة لمذهب داروين تماما ، ومع وجاهة هذه الاستنباطات ، فاننا ننصح بعدم الركون اليها كعقيـــدة ، فانه يقف فى سبيلها قوله تعالى فى سورة الرحمن : « خلق الانسان من صلصال كالفخار » فهـــذا النص يدل على أن الله تعالى حول الحمأ المسنون الى طين جافه كالفخار ، ثم أجرى عليه الحياة بعد ذلك بطريقة لا نعلمها ، وذلك أدل على قدرة الله تعالى ، فان منح الحياة والكمال الانسانى لشىء يابس جاف لم يشم رائحة الحياة ، أعجب وأدل على قدرة الله تعالى من منحها لانسان متطور من الخلية الحية ، وكم لقـــدرة اللـــه من عجائب !

ألست تعلم أن ابراهيم — عليه السلام — ألقى فى النار فجعلها الله بردا وسلاما ولم تحرقه •

فان قلت : أى مانع من تفسير قوله تعالى : « خلق الانسان من صلصال كالفخار » بأنه تعالى خلق الانسان من طين منتن كالطين الذى يصنع منه الفخار ، فان من معانى الصلصال الطين المنتن ، من صل اللحم أنتن ، فاذا سلم هذا التأويل ، أمكن الرجوع الى الاستنباطات التى تقدمت •

فالجواب : أن هذا التأويل ممكن عقلا ، لكنه مخالف لظاهر النص بدون ضرورة ، فالسلامة تقتضى التسليم بما جاء عن خلقه فى كتاب الله ، من أنه خلق : من تراب ثم طين ثم حمأ مسنون ، ثم صلصال ، أما تفصيل خلقه من ذلك : فيترك التعرض له ، لأن ما أمسك عنه الكتاب والسنة فلا داعى لأن نقحم أنفسنا فى تفصيله حتى لا نكون ممن يرجم بالغيب •

وحسبك : أن الله خلقه بيده ، أى بدون وسائط ، كما يدل عليه توبيخ الله لابليس حين امتنع عن السجود له بعد تمام خلقه بقوله : « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين (١) » •

فاذا كان المولى قد احتفظ بسر صنعه وخلقه له دون وسائط، فلنمسك عن البحث فى طريقة خلقه ، فذلك أسلم وأحكم •

---

(١) سورة ص : ٧٥ ، والمراد من خلق آدم بيدى الله تعالى خلقه بقدرته تعالى دون وسائط ، فانه تعالى منزه عن مشابهة خلقه فى الجوارح وغيرها .

الحكمة فى خلق آدم

خلق الله آدم عليه السلام لحكمتين، وان شئت فقل لغايتين:

(أولهما) : أن يكون خليفة فى الأرض كما دل عليه قوله تعالى : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة» (١)

(وثانيهما) : أن يعبد الله هو وذريته ، كما دل عليه قوله سبحانه « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون (٢) » .

والمقصود من كونه خيلفة فى الأرض : أنه هو وذريته خلفاء عن الله تعالى ، ونواب عنه فى عمارة الأرض وتدبير شئون ما فيها من الحيوانات والنبات ، وشق الأنهار والترع ، وانشاء المساكن والمدائن والممالك والدول ، وأن ينفذ آدم وخواص بنيه من الأنبياء والصالحين أحكام الله تعالى ما بين أوامر ونواه .

ومن المفسرين من قال : انهم خلفاء عمن كانوا يعمرون الأرض قبلهم من خلق الله فبادوا وهلكوا .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٣٠

(٢) الذاريات : ٥٦

رأى الملائكة فى خلافة آدم وذريته

حينما أخبر الله ملائكته بأنه سيجعل فى الأرض خليفة من البشر لعمارتها ، يغلب على الظن أنه سبحانه بين لهم ما ستكون عليه بشريتهم من الغرائز والقوى ، ولذا سألوه قائلين : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » (١) أى أن من هذه غرائزهم وقواهم ، شأنهم أن يفسدوا فى الأرض ، ويسفكوا الدماء ، فلماذا جعلتهم خلفاء فى الأرض مع خطورتهم ، وليس غرضهم من سؤالهم هذا الاعتراض على الله تعالى فى استخلافه اياهم وهم على ذلك النمط من الغرائز الداعية الى الفساد ، بل المقصود منه : استكشاف الحكمة فى استخلافهم ، والاستخبار عما يزيح شبهتهم ، ويرشد الى معرفة ما فى آدم وذريتـــه من الفضائل التى جعلتهم أهلا للخلافة ، مع ما هم عليه من الاستعداد للشر والفساد ، ومثلهم فى ذلك : مثل متعلم يســأل أستاذه عن شبهة قامت فى ذهنــه ، ليزيلها بجواب منه يريح به نفســه .

والذى أوجب حمل سؤال الملائكة على هذا المعنى ، ما هو معروف من أدبهم مع الله ، وأنهم كما وصفهم سبحانه : « بـــل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » (٢) .

---

(١) وقيـــل انهـــم عرفوا ذلك قراءة من اللوح المحفوظ ، أو قياسا على من كان قبلهم .

(٢) الأنبيـــاء : ٢٦ ، ٢٧

ولقد عزز الملائكة سؤالهم الاسترشادى بقولهم : « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » أى : أمستخلف فى الأرض من هذا شأنهم ، مع وجود من هو مجتهـد فى طاعتك لا يعصيك أبـدا ، فماذاك الا لحكمة خفيت علينـا ، فبينها لنا ياربنا ، لنتعـرف حكمتك .

ولا بد أن الملائكة لم يكن لهم علم بما سوف يخلقه الله فى البشر من العقل ، وما سوف يكون فيهم من أنبياء ومصلحاء ، يهذبون غرائزهم ، ويوجهونها نحو الخير ، وأن الخير غالب فيهم ، فلذا قالوا ماقالوا ، ليجيبهم الله بقوله : « انى أعلم مالا تعلمون » أى : أعلم من شئونهم التى تجعلهم أهلا للخلافة مالا تعلمون ، ولا خطر على الأرض وأهلها من شر يسير ، الى جانب خير كثير ، يضيع معه أثر الشر أو يقل خطره .

لماذا خلقنا بغرائز تميل الى الشر

لقد كان فى قدرة الله أن يخلق بنى آدم بغرائز لا تنزع بهم الى الشر مطلقا بل تتجه الى الخير المحض ، ولكن الغاية الثانية لخلقهم ، هى أن يعبدوا الله تعالى ، ليثيبهم فى الدار الآخرة على عبادتهم اياه ، كما تقدم بيانه فى حكمة خلق آدم •

ولو كانــوا مخلوقين للخير وحده لــكانوا مجبورين على الطاعة غير مختارين فى أدائها ، ولما كانوا مستحقــين للثواب ، لأنهم لم يبذلوا الجهد فى سبيل عبادة الله ، اذ ليس فيهم نزوع الى الشر حتى يقاوموه ويثابوا على مقاومته •

كما أنهم لو كانت غرائزهم خالصة للخير وحده ، لــكان الانسان آليا بحتا ، فيكون مسيرا بغرائز كالحيوانات ، فلا يكون له شرف كبير عليها ، ولا يكون بحاجة الى عقل يوجهه لاستغنائه بغرائزه الخيرة ، ومتى فقد العقل ضاعت خلافته فى الأرض ، لأنه أساس مباشرته مهام تلك الخلافة فى الكائنات التى حوله •

ولقد كان لوجود الشر الى جانب الخير ، وغلبة الخير على الشر ، فضل كبير فى تعريف الناس بنعمة الله تعالى، حيث حفظهم من شرور أنفسهم ، بغلبة دواعى الخير فيها على دواعى الشر ، وقيام المصلحين من الأنبياء والصلحاء بدور التوعية من أضرار الفساد فى الأرض ، فاذا عرفوا نعمة الله فى ذلك وشكروه بالطاعة ،

ازدادت حسناتهم ، وعظم عند الله ثوابهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة (١) » فالله تعالى بلانا بالشر والخير امتحانا لنا ، لنثاب على مقاومة الشر ، وتثبيت قواعد الخير .

واعلم : أن من صفات الله تعالى : (الرحمة والغفران) فما لم يكن للبشر ذنوب يرحمهم الله بغفرانها ، فان هاتين الصفتين لاتتجليان لهم ، حيث لا توجد لهم ذنوب يرحمون بغفرانها ، كما أنه لا حاجة حينئذ لدار الجزاء .

واعلم : ان الانسان مملكة فى نفسه وفيما حوله ، والذى يحكم هذه المملكة فى الانسان ما فيه : من عقل وعلم وحكمة، ولابد فى هذه المملكة من سلبيات وايجابيات ، حتى يتبين فضل هذه الثلاثة فى حكمها ، وتغليب جانب الخير على جانب الشر فيها ، ولعلها هى المقصودة بقوله تعالى : « انى أعلم مالا تعلمون » .

---

(١) الأنبياء : ٣٥

أساس خلافة آدم العلم

ثم عقب الله قوله تعالى : «انى أعلم مالا تعلمون» بقوله : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين » .

والأسماء : جمع اسم ، ويطلق على ما يكون علامة للشيء ودليلا له يرفعه الى الذهن ، من الألفاظ والصفات والأفعال ، مأخوذ من السمة وهى العلامة (١) .

والمقصود : أنه تعالى علمه الأسماء مقترنة بمسمياتها ، فاذا رأى المسمى عرف اسمه وصفته ومنفعته ، واذا سمع الاسم العنوانى أدرك مسماه وعرف صفاته ومنافعه ، ولكن المسميات ملحوظة فى الأسماء قال تعالى : « ثم عرضهم على الملائكة » أى : ثم عرض مسميات تلك الأسماء على الملائكة .

ومن العلماء من قال : المراد بالأسماء المسميات ، لقوله : « ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء » أى : عرض تلك المسميات على الملائكة ليخبروه بأسمائها .

وسواء أكان تفسير الأسماء هذا أم ذاك ، فقد أثبتت الآية الكريمة لآدم عليه السلام ، أنه تعالى أعطاه العلم بجميع أسماء المملكة الأرضية ومسمياتها التى هو خليفة عليها ، كما أعطاه

---

(١) أما اطلاقه على ما يقابل الفعل والحرف فهو اطلاق استحدثه علماء النحو .

العلم بغيرها مما لا يعلمه الا الله ومن أعطى هذا العلم الواسع فقد أعطى الى جانبه العقل الفسيح الذى يتسع لهذا العلـــم ، كما أعطى الحــكمة التى هى من خواص كرام العلماء •

ولقد ختم الله الآية بقوله للملائكة : « ان كنتم صادقين » أى ان كنتم صادقين فى أن آدم وذريته لا يصلحون للخلافة فى الأرض ، وأنكم أولى بها منهم ، فأخبرونى بأسماء هذه الأشياء التى سأجعلها موضعا للخلافة •

ولمـــا قال الله لهم ذلك أعلنوا جهلهم بعلم أسمائها،معتذرين عن ذلك بقولهم : « لا علم لنا الا ما علمتنا » وأنت لم تعلمنا اياها فلا سبيل لنا الى الانباء بها ، ثم أثنوا على الله بقولهم : « انك أنت العليم الحكيم » انك أنت العليم بــكل شىء ، الحكيم فى التقدير والتدبير •

ولما أعلنوا عجزهم ، أمر الله آدم أن يعلمهم بأســمائها قائلا : « يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قـــال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمـــون » •

والمعنى : ياآدم أخبر الملائكة بأسماء تلك المسميات ، أى : بأعلامها وصفاتها ومنافعها وأحوالها ، فلما أنبأهم آدم بـــذلك ألزم الله الملائكة بالحجة ، وقال لهـــم ما معناه : ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأسرارها وما ينبغى لهـــا ، ولهذا اخترت للخلافة من يصلح لهـــا •

وكما أعلم ذلك أعلم ما تظهرون أيها الملائكة ، وفى جملته : ما قلتموه من عدم صلاحية آدم وذريتـــه للخلافة لافسادهم ، وأعلم ما تكتمونه ، وفى جملته : اعتقادكم صلاحيتكم لها .

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أن الله مكن لآدم من أن يثبت للملائكة أهليتـــه للخلافة ، بما آتـــاه الله من العلم الذى عجزوا عنه ، كما دلت على حكمة الله فى اختياره لآدم خليفة عنه فى الأرض ، وكذلك ذريتـــه ، حيث وهبهم من العقول والقوى ما يحسنون به عمارتها والانتفاع بخيراتها ، وابراز كنوزهـــا ، ومعرفة الله وأداء واجباته وترك منهياته .

كيفية عرض المسميات على الملائكة

عرفت مما تقدم أن الله تعالى علم آدم الأسماء كلها ، والمراد من الاسماء : ما يعم الأعلام ، وأسماء الأجناس ، والصفات والمنافع ، والأفعال والجمل وروابطها ، مأخوذة من السمة وهى : العلامة ، وكل ذلك سمات وعلامات مميزة ، يعرف بها آدم كيف يميز المسميات بعضها عن بعض ، وينتفع بها ، ويعبر عنها ، وأنه ليس المراد : من الأسماء ما دل على المعانى دون زمان ، وهى المقابلة للأفعال والحروف ، فان ذلك اصطلاح مستحدث للنحويين بعد نزول القرآن ، بل المراد بها : ما هو أهم من ذلك كما تقدم .

روى شيبان عن قتادة قال : علم الله آدم من الأسماء : أسماء خلقه ، مالم يعلم الملائكة ، وسمى كل شىء باسمه ، وأنحى منفعة كل شىء الى جنسه .

قال النحاس : وهذا أحسن ما روى فى هذا ، والمعنى : عرفه أسماء الأجناس وعرفه منافعها : هذا كذا ، وهو يصلح لكذا أ هـ .

وعرفت أن المراد من قوله تعالى : « ثم عرضهم على الملائكة .. » الآيتين . أن الله عرض مسميات تلك الأسماء عليهم ، وسألهم عن أسمائها وصفاتها ومنافعها ، فأجابوه : بأنهم

لاعلم لهم بها ، لأن الله لم يعلمهم اياها ، وضمير جمع الذكور العقلاء فى (عرضهم) لتغليب العقلاء فى هذه المسميات على غيرهم .

وكيفية عرض هذه المسميات على الملائكة ، لم يأت تفصيل لها فى كتاب الله وسنة رسوله ، فلذا جالت فيها ظنون المفسرين :
فمنهم من يقول : ان الله صورها لهم فى قلوبهم .

ومنهم من يقول : انه أظهرها لهم كالذر .

ومنهم من يقول : انه أخبرهم بمن سيوجد ، وسألهم عن أحواله ، كأن يقول : سأوجد كذا وكذا ، فأخبرونى بمالهم وما عليهم ، وما أسماء تلك الأنواع ، الى غير ذلك مما قالوه تقريبا لموضوع عرضها للأذهان .

ونحن لانستطيع أن نجزم بشىء مما قالوه فى هذا الصدد وحسبنا : أن نعتقد أن الله سبحانه عرض المسميات عليهم بالصورة التى تجعلها واضحة المعالم أمامهم ، ثم سألهم عن أسمائها ، أى عما يميزها من الأعلام وأسماء الأجناس ، وعن منافعها وأغراضها ، وغير ذلك مما تقدم فى بيان المراد من الأسماء .

سجود الملائكة لآدم

بعد أن اتضح للملائكة فضل آدم وكرامته على ربه ، وتبين لهم علمه وصلاحيته لخلافة الأرض ، وأولويته بها منهم بما علمه الله ، أمرهم سبحانه بالسجود لآدم ، وذلك ما حكاه الله بقوله : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم •• » الآية •

والسجود فى اللغة : بمعنى الخضوع بأى صورة من الصور ولكنه فى الشرع : وضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة •

واختلف فى المراد منه هنا ، فقيل : هو السجود الشرعى وبما أنه لايجوز الا لله وحده ، فلذا حملوا قوله تعالى : « اسجدوا لآدم » على معنى اسجدوا لله لأ جل آدم ، أى : لأجل خلقه فى أحسن تقويم ، وأوسع علم ، وأحسن صلاحية للخلافة فى الأرض •

واعترض على هذا الرأى بأنه لوكان الأمر كذلك ، لما امتنع ابليس عن السجود ، لأنه سجود لله ، وابليس لايمتنع عن ذلك فقد كان من العباد ، ولكنه كان أمرا بالسجود لآدم ذاته ، ولذلك امتنع من السجود له وقال : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » • يعنى : أنه اذا كان خيرا منه ، فكيف يكلف بالسجود له ؟ •

وكذلك قال : « أرأيتك هذا الذى كرمت على » •

وأجيب عن هذا الاعتراض : بأن الأمر بالسجود لله من أجل آدم ، يجعل آدم سببا للعبادة ، وهذا يدل على عظم شأنه وأفضليته ، وهذا هو الذى أثار حقد ابليس وغيرته وزعمه أنه أفضل منه ، فكيف يؤمر بالسجود من أجله وهو دونه فى زعمه ؟ .

ومن العلماء من حمله على السجود اللغوى بمعنى : الخضوع ، أى أظهروا الخضوع لآدم تعظيما لخلقه ، واعتذارا عما قلتم فيه ، واعترافا بفضله حيث علمكم مالم تكونوا تعلمون (١) .

---

(١) ويجوز أن يكون معنى « اسجدوا لآدم » عظموه بحسن الظن فيه ، ولاتمتهنوه باساءة الظن فيه ، حيث قلتم انه سوف يفسد فى الأرض ويسفك الدماء .

امتثال الملائكة وطرد ابليس

يقول الله تعالى : « واذ قلنـا للملائكة اسـجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » وقد دل هذا النص على أن الملائكة امتثلوا ، فسجدوا وخضعوا تعظيما لآدم ، ولكن ابليس أبى أن يسجد مستكبرا ، وكان اباؤه هذا كفرا بالله تعالى ، فان من امتنع عن تنفيذ أمر الله . عنادا لله فى أمره فهو كافر .

وهنا يسأل سائل فيقول : هل ابليس من الملائكة أو من الجن ؟ .

لاجائز أن يكون من الملائكة ، لأنهم كما قال تعالى : « لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » وابليس عصى أمره ، ولأنه سبحانه صرح فى سـورة الكهف بأنه من الجن حيث قال : « واذ قلنا للملائكة اسـجدوا لآدم فسـجدوا الا ابليس كان من الجن » .

واذا كان ابليس من الجن وليس من الملائكة ، فلا يعتبر مأمورا بالسجود ولا آثما بتركه ، لأن الأمر به انما توجه الى الملائكة وابليس ليس منهـم ، فكيف يسـتثنى من الملائكة الساجدين ؟ . ويقال : انه أبى واستكبر وكان من الكافرين ؟ .

والجواب : أننا نلتزم أنه ليس من الملائكة لما تقدم ، ولأن الملائكة خلقت من نور ، والجن خلقت من مارج من نار ، كما فى

حديث مسلم عن عائشة ، وقــد كان ابليس من الجن كما صرحت به آية سورة الكهف .

أما اعتباره مكلفا بالسجود ، وتسجيل الاباء والكفر عليه فيجاب عنه بما يلى .

١ — أنه كان ناشئا بين الملائكة فعــد منهم ، فتناوله الأمر كما تناولهم ، كالرجل يترك قبيلته ويعيش فى قبيلة أخرى فيعتبر منفصلا عن قبيلته الأصلية ، وواحدا من القبيلة التى عاش فيها فيجرى عليه ما يجرى على أهلها .

٢ — أن الجن كانوا مأمورين مع الملائكة ، فاستغنى بذكر الملائكة عن ذكر الجن لشرفهم ، فكأنه قيل : واذ قلنا للمــلائكة والجن اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس .

٣ — أن ابليس كان مأمورا أمرا صريحا ، كما يشير اليــه قوله تعالى « مامنعك أن تسجد اذ أمرتك » فكأنه قيل : واذ قلنا للملائكة وابليس اسجدوا لآدم ، وضمير « فسجــدوا » راجع للمأمورين ، ولم يصرح بابليس فى المأمورين ، اكتفــاء بذكره فى الاستثناء ، فمنه يعلم أنه كان مأمورا بالسجود ، وكانت نتيجة اباءه السجود أن طرده الله من الجنة صــاغرا ، قال تعالى فى سورة الأعراف : « قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين ١٣ » .

أمر آدم بسكنى الجنة ونهيه عن شجرة منها

يقول الله تعالى فى سورة البقرة : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ٣٥ » •

أفادت هذه الآية : أن الله تعالى أمر آدم وزوجه حواء أن يسكنا الجنة ، وأنه حرم عليهما الأكل من شجرة معينة •

ولاخلاف بين العلماء فى أن الله تعالى أمرهما بسكنى الجنة ، بعد اخراج ابليس منها ، لرفضه طاعة الله فيما أمره به من السجود لآدم ، وكفره بهذا الرفض والاصرار عليه (١) •

والتعبير بقوله « اسكن » يؤذن بأن وجوده فى الجنة وجود سكنى واقامة مؤقتة ، وأنه سيخرج من الجنة بعد انتهاء اقامته ، حسبما وقته الله لهذه الاقامة •

قال بعض العارفين : السكنى تكون الى مدة ثم تنقطع فدخولهما فى الجنة كان دخول سكنى لا دخول ثواء • ا هـ — والثواء : الاقامة •

ولعل الأمر بسكناها أمر بالاستمرار على ما كان فيه من سكناها قبل اهباط ابليس وليس المراد أنه لم يكن يسكنها فأمر بسكناها •

---

(١) راجع القرطبى : جـ ١ ص ٢٩٨ .

كيف خلقت حواء ؟

لم يرد فى القرآن الكريم ولا السنة المطهرة ، نصوص قاطعة بكيفية خلقها ، والمادة التى خلقت منها كما جاء عن آدم عليه السلام ، بل نصوص محتمله للاجتهاد ، صالحة للتأويل ، ومن ذلك قوله تعالى فى سورة النساء : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ..» الآية . وقوله فى سورة الروم « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة .. » الآية .

فقد ذهب بعض العلماء الى أن المراد أنه تعالى خلق لنا من جنسنا أزواجا لتطمئن نفوسنا اليهن ، بدلا من أن يخلقهن من جنس آخر لاتطمئن له نفوسنا ، أما مادة خلقهن فالله أعلم بها .

وذهب الباقر الى أن حواء خلقت من فضلة طينة آدم على نظام خلقته لتسكن نفسه اليها ، فمعنى قوله تعالى : « وخلق منها زوجها » وخلق من طينتها زوجها على نظام خلقتها ، بحيث تكون من جنسها حتى تسكن اليها .

وذهبت طائفة : الى أنها خلقت من ضلعه ، وبذلك قال عمر وعن ابن عباس وابن مسعود أنهما قالا : لما أسكن الله آدم الجنة ، مشى فيها مستوحشا ، فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصرى من شقه الأيسر ، ليسكن اليها ويأنس بها ، فلما انتبه

رآها فقال : من أنت ؟ قالت امرأة خلقت من ضلعك لتسكن الى وهو معنى قوله تعالى : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » .

ويستدل أصـحاب هذا الرأى بما جاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ان المرأة خلقت من ضلع ، وان أعوج شىء فى الضـلع أعلاه لن تستقيم لك على طريقة واحدة ، فان استمتعت بها استمتعت وبها عوج ، وان ذهبت تقيمها كسرتها ، وكسرها طلاقهـا » . وبقوله صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره . واستوصوا بالنساء خيرا ، فانهن خلقن من ضـلع ، وان أعوج شىء فى الضلع أعـلاه ، فان ذهبت تقيمه كسرته ، وان تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا » أخرجه البخارى عن أبى هريرة .

وأصحاب الرأيين : الأول والثانى يؤولون الحديث بروايتيه بأنه : كناية عن اعوجاج طباع المرأة ، ويؤيده ماجاء فى حديث مسلم عقب ذكر خلقها من ضلع ، من قول الرسول : « وان أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، لن تستقيم لك على طريقة واحدة » الخ :

الجنة التى سكنها آدم وزوجه

الجنة فى اللغة بمعنى البستان ، وفى القرآن الكريم تطلق تارة على ذلك ، كما فى قوله تعالى فى سورة البقرة : « كمثل جنة بربوة » أى : كمثل بستان بمكان مرتفع ، وكما فى قوله سبحانه فى سورة الكهف : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ، وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا » • أى : بستانين من أعناب • الخ •

وتطلق تارة أخرى على دار الثواب ، كما فى قوله تعالى فى سورة آل عمران : « وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » وقوله فى سورة محمد : « مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى » الآية ١٥ •

واختلف العلماء فى الجنة التى أمر آدم وحواء أن يسكناها أهى دار الثواب أم هى بستان فى الدنيا ؟

فذهب الجمهور الى أنها دار الثواب ، وشاهدهم على ذلك اقترانها بأداة التعريف (أل) وهى اذا اقترنت بها فقيل : (الجنة) انصرفت الى المعهودة فى لسان الشرع ، وهى دار الثواب •

واذا تتبعت قصة آدم فى جميع القرآن ، وجدت الجنة التى

سكنها آدم مقترنة بأداة التعريف ، فتكون دار الثواب وفقا لعرف القرآن ، أما جنة الدنيا فلا تذكر الا منكرة ، — أى بدون (أل) ومثال ذلك : (كمثل جنة بربوة) ، (جعلنا لأحـدهما جنتين من أعناب) •

ذهب أبو مسـلم الأصفهانى وبعض المتصوفة والمعتزلة وغيرهم : الى أنها بستان فى الدنيا ، ولكونها حديقة معينـة فى الدنيا اقترنت (بأل) للاشارة اليها ، وقد جاء فى لسان الشرع اقتران احدى جنات الدنيا (بأل) لكونها معينة ، وذلك فى قوله تعالى فى سورة القلم : « انا بلوناهم كمـا باونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون » •

فقد كانت هذه الجنة بأرض « صوران » لرجل كريم كثير الاحسان منهـا على المساكين ، فلما مات شح أولاده عليهـم وتعاهدوا على حرمانهم ، فعاقبهم اللـه بالحرمان من ثمرها : « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون • فأصبحت كالصريم »

واستدل أصحاب هذا الرأى بأدلة عديدة منها :

١ — أن خلق آدم كان فى الأرض ومن ترابهـا بالاجماع ولم ينقل فى قصته أنه رفع الى السـماء ، حيث جنـة الجزاء ولو وقع لكان أولى بالذكر من سواه •

٢ — أن ابليس وسوس لآدم وأغواه ، فاذا كان آدم فى دار الثواب وقت وسوسة الشيطان له ، فكيف وصل اليه فيها

وهى فى السماء ، وقد أهبط منها ، ومنع من دخولهـا ، وجعل مذموما مدحورا ؟ •

٣ ــ أنها لو كانت دار الثواب لما حدث فيها من ابليس ما حدث ، من اللغو والكذب ، وحمل آدم على الاثم ، ولما سمع فيها آدم شيئا من ذلك ، لقوله تعالى : « لا لغو فيها ولا تأثيم » وقوله : « لايسمعون فيها لغوا ولا كذابا » وقوله : « لايسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ، الا قيلا سلاما سلاما » •

٤ ــ أنهـا لو كانت دار الثواب لما كلف فيهـا آدم بعدم الأكل من الشجرة ، لأنهـا ليست دار تكليف ، ولكنهـا دار جزاء •

٥ ــ أن آدم قد عصى فى تلك الجنـة ، فوجب أن تكون بسـتانا فى الدنيـا ولا تكون دار الثواب ، لأن دار الثواب لايعصى الله فيها ، فهى دار جزاء للصالحين ، ودار حمد وشكر وسلام وبهجة •

٦ ــ أن دار الثواب لا يدخلهـا كافر بالنص والاجمـاع وحيث ان ابليس قد دخلهـا لاغواء آدم ، مع أن ابليس كافر حينئذ ، فلذا يجب أن تكون بسـتانا فى الدنيا ، ولا تكون دار الثواب •

ومما يرجح كونها بستانا فى الدنيا ، أن الله قبل أن يخلق آدم قال لملائكته : « انى جاعل فى الأرض خليفة » وهذا يقتضى

أن يخلقه الله ويسكنه فى مكان خلافته ، وأن ينشأ ويعيش فيها أما أن يسكنه الله فى جنة الثواب بعيدا عن دار خلافته ، فليست له حكمة ظاهرة .

كما أن افتراض كونها جنة الثواب يقتضى أن الله تعالى عاقبه بالاهباط منها الى أرض الضياع بارتكابه زلة صغيرة ، كما عاقب ابليس على كفره باهباطه منها ، فسوى بينه وبين ابليس فى العقاب ، مع اختـــلاف وتباين الذنب الحادث من كل منهما فلهذا وجب أن تكون الجنة التى سكنها آدم وعصى الله فيها هى بستان فى أرض خلافته .

وقد ذهب بعض أصـــحاب هذا الرأى الى تعيين مكانها فمنهم من قال : انها كانت بالشام ، ومنهم من قال : كانت بين فارس وكرمان ، والله أعلم بالصواب .

أما اهبـــاط آدم وزوجه من الجنة فســـيأتى الكلام عليه بعد الكلام على معصيته .

ومن العلمـــاء من قال : الأدلة متعارضـــــة : فالأحوط والأسلم الكف عن تعيينها وعن القطع به ، واليه مال صـــاحب التأويلات (١) .

---

(١) انظر الآلوسى جـ ١ ص ٢١٤ فى تفسير الآية ٣٥ من البقرة

الشجرة المحرمة

أباح الله لآدم وحـــواء ، أن يأكلا من ثمــار هذه الجنة أكلا رغدا — فى هناء وسعة — وحرم عليهما ثمار شـــجرة منها وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة البقرة :

« وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ٣٥ » •

والمراد من الأكل رغدا : الأكل الهنىء الذى لا عنـــاء فيه أو الواسع ، يقال : رغد عيشك — بضم الغين وكسرها — اذا كنت فى رزق واسع كثير •

وقد كان تحريم هذه الشجرة موجهـــا الى القـــرب منها قال تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » وجعل القرب منها ظلما حيث فرع عليه قوله : « فتكونا من الظالمين » وذلك على سبيل المبالغة ، فان المقصـــود تحريم الأكل من ثمرها ، وهو الذى يترتب عليه ظلم النفس ، أما القرب منها دون أكل فلا تحـــريم فيه ولا ظلم •

وقد خاض الناس فى تعيين هذه الشجرة المحرمة ، فقيل : هى الحنطة ، وقيل : هى النخلة ، وقيل : شجرة الكافور ، ونسب تعيينها بذلك الى على كرم الله وجهـــه ، وقيل : التين ، وقيل: الحنظل •

ومن أغرب ما قيل فيها : شجرة المحبة ، وشجرة الطبيعة والهوى ، وهذا القول الأخير قريب مما يقوله بعض المعاصرين : (شجرة الجنس) .

وهذا والذى قبله مما لاينبغى أن يذهب اليه أحد ، فانهما خلقا ليحب كلاهما الآخر ، ويأنس به ، ويسكن اليه ، ويطمئن بقربه ، كما قال تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » كما أنهما خلقا ليتناسلا حتى تعمر الأرض بذريتهما ، لتتم بذلك الخلافة فى الأرض ، فهى الغاية الأساسية من خلقهما ، فكيف تحرم عليهما شجرة الطبيعة والهوى ، أو كما يقول بعض المعاصرين: شجرة الجنس ،والأولى عدم تعيينها ،حيث أن الله تعالى لم يعينها وكذا الرسول صلى الله عليه وسلم .

الحكمة فى ابهام هـذه الشجرة وتحريمها

حتى لا يتجه الناس الى التماس حكمة تناسب نوعها ، بل يتجهون الى فهم أن الله تعالى أراد اختبار مقدرة آدم وحواء على احتمال المنع من بعض المشتهيات ، وتمرينهما على الصبر وضبط النفس ، والتمكن من صرفها عما نهيت عنه ، فاختار أى شجرة لا يعرف آدم وحواء خصائصها ولا طعمها ،لكونهما حديثى عهد بالوجود ، ولم يستوعبا بعد ثمار الأشجار تناولا ، فحرم عليهما تلك الشجرة المجهولة لهما ، فاستغل الشيطان فرصة

جهلهما بخصائصها ، فجعل يزين لهما تناول ثمارها ، حتى يصبحا بتناولها ملكين أو من الخالدين ـ كما نبينه بعد :

وبما أن أحب شيء الى النفس ما منعت عنه بمقتضى جبلتها ، وأن تحسين الشيطان لهذا الممنوع ، يغرى النفس به أكثر ، فلهذا كان ذلك التحريم المفضى الى المخالفة ، ليفتح الله بها باب التوبة والتطهر من الاثم ، والعودة الى النقاء النفسى ومرضاة الله ، كما سيتضح من باقى القصة ان شاء الله تعالى .

فمما سبق يعلم أن تحريم الأكل من الشجرة ليس عبثاً خالياً عن الحكمة ، بل ليؤدى الى النتائج المرجوة وهى : التوبة واصلاح الحال بعد المخالفة التى سوف يتعرض لها البشر بمقتضى جبلتهم ، حتى تستقيم أمورهم بالمتاب كلما أخطئوا .

ويمكنك أن تعتبر النهى عن الأكل من الشجرة وما ترتب عليه ، اجراء تدريبيا لممارسة الطبيعة البشرية حياتها على سجيتها ، ولتعرف ضوابط اصلاحها وصلاحها ، فكل ذلك داخل تحت مشيئة الله تعالى وارادته ، ليتعرف البشر أسلوب حياتهم وما ينبغى لهم أن يتركوه ، وما ينبغى لهم أن يفعلوه ، امتثالا لتشريعات الله الذى يعرف مافيه مصلحة عباده .

كما أن من مزايا هذا الامتحان : أن يعلم آدم وتعلم ذريته أن الله رحيم بعباده حيث يقبل توبتهم ويعفو عن

سيئاتهم ، فانهم لم يخلقوا بغرائز تدفع الى الكمال وحده بل هى سلاح ذو حدين ، تستخدم فى الخير كما تستخدم فى الشر ، وقد أنعم الله عليهم بالعقل الذى هو النور الهادى الى المراشد ، وجعله أميرا على تلك الغرائز ، فمن استضاء به عند استخدام غرائزه اهتدى ورشد ، ومن أهمله ضل وغوى .

ولا يترك الله عباده فى ضلالتهم اذا ضلوا ، بل يفتح لهم باب اليقظة والتأمل ، تارة بارسال الرسل ، وأخرى بصحوة العقل ونشاطه ، ليثوبوا الى رشدهم ، ويصلحوا من حال أنفسهم .

تلك هى الحياة الدنيا ، وذلك هو التكوين الانسانى الذى يصلح لها ، وقد أخبرنا الله على ألسنة رسله ، أنه أعد دارا للجزاء يلقى فيها كل امرىء جزاء ما عمله فى دار الامتحان (الدنيا) ليحملهم التفكير فيها على احسان العمل ونيل الثواب .

واعلم أيها القارىء الكريم : أن الانسان فى الدار الآخرة يتحرر من كل ميول الشر والفساد ، وتنحصر ميوله فى الحب والألفة ، والتمتع بأنواع النعيم المقيم البرىء من المآثم ، مع صفاء النفس وراحة الفؤاد .

الأكـل من الشجرة

قلنا فيما سبق : ان الله تعالى حرم على آدم وحواء الأكل من شجرة معينة ، حتى لا يظلما أنفسهما ان أكلا منها ، وفى ذلك تحذير ضمنى من الآثار السيئة المترتبة على الأكل منها .

ولكن آدم قـد أكل منها ، فكيف حـدث منـه ذلك ، وهو الانسان الكامل ، الذى خلقه ربه بيديه ـ أى بلا واسطـة ـ وفى أحسن تقويم ، ومنحه من العلم ما فاق به الملائكـة ، وأمر ملائكته أن يسجدوا له تمجيداً لمزاياه ؟ .

هذا هو الذى سنتحدث عنه فيما يلى لنجلوه للقراء اجابة على السؤال السابق :

ليس معقولا أن آدم وهو بهذه المنزلة ، ينهاه الله عن الأكل من الشجرة ، فيعصيه عقب النهى مباشرة ، ويرتكب ما نهاه الله عنه ، فلا بد أنه مكث مدة ملتزما الحدود التى ألزمه الله بها (١).

وأنت تعلم أن ابليس موتور من آدم ، حيث كان سببا فى اهباطه من الجنة ، وقد أقسم لربه أن يغويه وذريته أجمعين ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الحجر :

« قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولاغوينهـم

(١) والفاء فى قوله فى سورة البقرة « فأزلهما الشيطان عنها » بعد قوله « ولا تقربا هذه الشجرة » الخ افادت الترتيب من غـير تعقيب زمنى .

أجمعين ٣٩ الا عبادك منهم المخلصين ٤٠ » ويقول فى سورة الأعراف : «فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ١٦ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ١٧ » .

ومن هذه النصوص : نعلم : أن ابليس مصر على صد آدم وذريته عن الصراط المستقيم ، وأنه سير صدهم فى اتجاهاتهم الى الخير فيصرفهم عنها أينما اتجهوا ، ولم يجد ابليس وسيلة لصرف آدم عن عقيدته ، فرصده فى عيشه الرغيد الذى أباحه الله له فى الجنة ، ليوقعه فى المخالفة ، فيحرمه من هذه السعادة التى يتمتع بها ، واليك ما صنعه معه ليصل الى هدفه :

١ — قال له ولحواء : « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » (١) .

٢ — « وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين » (٢) .

٣ — « فدلاهما بغرور » (٣) .

أى : فأنزلهما من استمساكهما بما أباح الله لهما ، الى الأكل من الشجرة ، بسبب غروره لهما ، وخداعه اياهما ، اذ فتح لهما الخبيث باب التفكير فى موضوع الشجرة المحرمة ، وجعل يكرر

(١) سورة الاعراف : ٢٠
(٢) سورة الاعراف : ٢١
(٣) سورة الاعراف : ٢٢

لهما الاغراء بالأكل منها ، ويزعم أنهما ان أكلا منها كانا ملكين أو كانا من الخالدين ، وأقسم أنه ناصح لهما ، ولم يزل يخدعهما ويغرهما حتى أنزلهما عن الاستمساك بما أباح الله لهما الى تجاوزه بالأكل من الشجرة المحرمة ، ولا بد أن هذا الاغراء استمر مدة طويلة وهما يمتنعان ، حتى تم له ما أراد ، ويدل لذلك أمران :

(أحدهما) قوله تعالى : « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » (١) والنسيان لا يكون الا بعد مدة طويلة من التكليف والعمل به ، واستمرار ابليس فى اغرائه بشتى الأمانى ، وتيسير أمر المخالفة ، حتى نسى التحذير من عداوته ومن مخالفة أمر الله ، وما يترتب عليه من الآثار الضارة به .

---

(١) سورة طه : ١١٥

النسيان والمعصيـــة

بينما نجـــد القرآن الكريم يصف مخالفة آدم تارة بأنها نسيان كما فى قوله تعالى : « فنسى ولم نجد له عزما » (١) نجده تارة أخرى يصفها بأنها عصيان وغوايـــة ، كما فى قوله تعالى : « وعصى آدم ربه فغوى » (٢) فكيف نوفق بينهما ؟ .

ان النسيان يقتضى أن أكله من الشجرة من باب الغفلة عما كلفه الله به دون أن يتعمد المخالفة ، أو يتأثر بوسوسة ابليس ، فهو سهو نفسى لا مدخل فيه لعمل الشيطان،فى حين أن قولهتعالى: « فدلاهما بغرور » (٣) يقتضى أن هذا الأكل ليس نسيانا نفسيا بل هو متعمد وناشىء عن اغواء الشيطان ، واذا كان الأمر كذلك فكيف ساغ لنبى كريم أن يتأثر بوسوسته ، ويخالف أمر ربـــه عمـــدا ؟ .

والجواب على ذلـــك : أننا نلتزم أن ما فعله آدم كان عن نسيان ، كما دل عليه صراحة قوله تعالي : « فنسى ولم نجد له عزما » وليس استجابة متعمدة منه لوسوسة الشيطان ، واليك البيـــان :

اعلم أن جميع النصوص الواردة فى تحريم الشجرة ، كانت صريحة فى الاشارة الى شجرة شخصية معينة ففى سورة البقرة

---

(١) سورة طه : ١١٥
(٢) سورة طه : ١٢١
(٣) سورة الأعراف : ٢٢

يقول الله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة .. ٣٥ »وفى الآية ١٩ من سورة الأعراف مثل ذلك النص .

ولا يوجد نص فى كتاب الله يفهم منه صراحة أن التحريم عام لجنس هذه الشجرة وليس خاصا بها وحدها ، ومع هذا بقى آدم وزوجــه حواء ممتنعين عن تناول ثمر النوع كلــه ، برغم وسوسة ابليس لهما ، ولكن ابليس لم ييئس من حملهمــا على المخالفة ، ففتح لهما بابها عن طريق فتوى ظاهرها معقول ، فقد نفث فى روعيهما قائلا : ان الله حرم عليكما شجرة بعينها مشيرا اليها بقوله : « ولا تقربا هذه الشجرة » فما بالكما تمتنعان عن النوع كله ، فانه لم يتناوله التحريم .

وظن آدم وزوجه ، أن هذا اجتهاد نفسى لا مدخل فيــه لوسوسة الشيطان ، الذى يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فى حين أنه فى الواقع أثر طبيعى للجاجة الشيطان والحاحه عليهما مدة طويلة بالأكل من الشجرة المحرمة ، بأساليب عديدة ، كقوله لهما : « مانهاكما ربكمــا عن هذه الشــجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » واقسامه لهما بأنه ناصح أمين ، وقوله لآدم : « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى » ولاريب : فى أن القرآن الكريم ذكر نماذج من اغرائه الطويل ، أما جميع أساليبه فهى مطوية تحت هذه النماذج .

وكانت نتيجة هذا الاغراء الطويل : أن آدم انصرف الى التفكير فى هذه الشــجرة وسر النهى عنهــا ، فهداه تفكيره الى

لاعتقاد أن النهى موجه الى شجرة عينها الله بالاشـــارة اليها بقوله : « ولاتقربا هذه الشجرة » وأنه لامانع من تناول ثمار غيرها من نوعها ، للتعرف على أسرار هذا النـــوع ، فلهذا ترك الشجرة المشـــار اليها وأكل هو وزوجه من ســـواها ، وتحقق لابليس مراده : « فدلاهما بغرور » أى فأنزلهما عن الامتناع من أكل ثمار الشجرة بجميع أفرادها ، الى الأكل من نوعها مع الامتناع عن شخصها وذلك بغروره ــ أى بخداعه لهما ــ مدة طويلة على النحو الذى سبق بيانه •

أما قوله : « فنسى ولم نجـــد له عزما » فالمراد منه : أنه نسى التحذير من خطورة الشيطان وعداوته بنحو قوله تعالى : « ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنـــة فتشقى » فخدع بتغريره وتزيينه الأكل منها ، حتى يحظى بالخلود والملك الذى لايبلى ، وتكريره ذلك التزيين فى أساليب شتى مدة طويلة حتى شـــوقه الى معرفة أسرارها ، والحصـــول على مزاياها فأفتى نفسه بأن تحريم الشجرة المعينة ، لا يمنع من أكل سواها من نوعها ، فأكل من ســـواها ، ظانا أن ما حدث اجتهاد نفسى وأن الشيطان بعيد عنـــه فيه ، مع أنه كان فى الحقيقة باغرائه ووسوسته •

وهو بهذا التأويل الضعيف الناشىء عن وسوسة الشيطان ، قد فقد العزم والتصميم على ترك الشجرة بشخصها ونوعها ، وتحول الى تخصص الترك بذاتها دون جنسها ، وفقد العزم فى الحذر

من الشيطان ، ولو أنه وجد منه عزم وتصميم على ما كان عليه من معاصاة الشيطان ، لما حدث منه ما حدث ، اذ لافرق بين شخص الشجرة ونوعها عند التأمل •

وقيل : معنى « ولم نجد له عزما » لم نجد له تصميما على الذنب ، فانه أخطأ فى الاستدلال ولم يتعمد مخالفة النهى •

وأما قوله : « وعصى آدم ربه فغوى (١) » فالعصيان فيه محمول على ارتكاب خلاف الأولى بمثله ، والأحوط فى الامتثال فان الأولى به والأحوط له ، أن يفهم عموم التحريم لنوع الشجرة ، لاخصوصه بالمشار اليها ، فجعلت مخالفته للأولى عصيانا بالنسبة لمقامه الكريم ، فان الأمر قد يكون حسنة لشخص سيئة لشخص آخر ، فالصدقة بدرهم على محتاج تعتبر حسنة ان كانت من رقيق الحال ، وتعتبر سيئة من رجل واسع الغنى فان اللائق به دينار أو دنانير ، لا درهم حقير •

ومن ذلك قوله تعالى فى حق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » فالذنب فيه محمول على مخالفته الأولى بالنسبة له ، كأخذه الفداء فى أسارى بدر بدلا من قتلهم ، فهذا ليس معصية قطعا ، بل هو حسنة ، حيث ان عددا كبيرا منهم أسلم بعد ذلك ، ولكنه يعتبر خلاف الأولى ، لأن هذه أول معركة ينتصر فيها الاسلام على الشرك والمشركين ، فكان الأولى قتل أسراهم الذين أذلوا

---

(١) سورة طه : ١٢١

المسلمين وأخرجوهم من ديارهم ، فضلا عن أنه أظهر فى ابراز قوة المسلمين ، من أخذ الفداء من أولئك الأسرى ، وأدعى لراحة المسلمين من مؤامراتهـم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض .. » (١) .

ولا يصح حمل الذنب فى الرسول على المعصية والاثم ، فانه لم يردعنه صلى الله عليه وسلم : أنه ارتكب ما يخالف شرع اللـه تعالى فى شأن ما من شئونه ، فقد كان أتقى الناس وأعلمهم بالله، فضلا عن أن النبى يشترط فيه العصمة من المآثم ، حتى لا يكون قدوة لأمته ، ويوثق بصدقه .

واذا كان الله تعالى يعيب على المؤمنين بقوله : « يأيهـا الذين آمنوا لـم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتا عند اللـه أن تقولوا مالا تفعلون » فكيف يعتقد أحد أن الرسول يخالف فعله قوله الذى يبلغه عن ربـه .

فان يجب تنزيه الرسول وكل الأنبياء عن المعاصى ، فانهم صفوة الله من خلقه ، والأسوة الحسنة لهم فى تنفيذ ما أمر الله به أو نهـى عنه .

---

(١) سورة الأنفال : ٦٧

(٥)

عصمة الأنبياء من المعاصى

اختلفت الآراء فى حدود عصمة الرسل من الذنوب ، ومتى يجب اتصافهم بهـا •

والجمهور يقولون : انهم معصومون من كبائر الذنـوب وصغائرها بعد النبوة ، لأنا أمرنا باتباعهم فى أقوالهم وأفعالهم أمرا مطلقا من غير التزام قرينة ، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم ، لعدم امكان التمييز بين ما هو قربة ، ومـا هو ذنب من أفعالهم وأقوالهم ، ولا يصح أن يأمر الله النـاس بالأخذ عنهم ، وهم لا يدرون على التحقيق أن ما يأخذونه عنهم من قبيـل الطاعة وليس من قبيل المعصيـة •

وكما تجب عصمتهم من جميع الذنوب بعد النبوة تجب قبلها فان مقتضى اختيار الله لعبد من عباده ليكون نبيا أن ينشئه الله على أكرم الخلال ، وأفضل الأقوال والأفعال ، حتى اذا شرفـه بالنبوة ودعا الناس الى ربهم ، اطمأنوا اليه ، واستأنسوا بصلاح ماضيه ، على صدقه فى حاضره فآمنوا به ، أما المنحرف فى نشأته عن سواء السبيل فما الى تكذيبهم له والكفر به من بديل ، فكيف يبعث الله لعباده نبيا سيىء السلوك مرفوضا منهم ، أرأيت الى الحكومات حين توظف أحد رعاياها فى عمل صغر أم كبر ، فانها تشترط فى تعيينه أن يكون حسن السير والسلوك ، فكيف لا يكون ذلك شأن ملك الملوك فى اختياره سفراءه ورسله لعباده ؟

وقال بعض المعتزلة : يجوز أن تحدث منهم الصغائر قبل النبوة لا بعدها •

وقال بعض الفقهاء : يجوز أن تقع منهم الصغائر بعد النبوة وقبلها ، أما الكبائر فلا بالاجماع •

والأكثرون يرفضون وقوع الصغائر منهم بعد النبوة •

وقال الأستاذ أبو اسحاق الاسفرايينى : واختلفوا فى الصغائر ، والذى عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم ، وصار بعضهم الى تجويزها ولا أصل لهذه المقالة : أى لادليل على صحتها — يريد أن تجويز بعضهم للصغائر باطل •

وقال بعض المتأخرين ممن ذهب الى تجويز وقوع الذنب منهم : الذى ينبغى أن يقال : « ان الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ، ونسبها اليهم وعاتبهم عليها ، وأخبروا بها عن نفوسهم ، وأشفقوا منها وتابوا عنها ، وكل ذلك ورد فى مواضع كثيرة ، يقبل بعضها التأويل ، ولا يقبله بعضها الآخر وكل ذلك بما لا يزرى بمناصبهم ، وانما تلك الأمور التى وقعت منهم على جهة الندور ، وعلى جهة الخطأ والنسيان أو تأويل دعا الى ذلك ، فهى بالنسبة الى غيرهم حسنات ، وفى حقهم سيئات بالنسبة الى مناصبهم وعلو أقدارهم ، اذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السايس ، فأشفقوا من ذلك فى موقف القيامة ، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة — قال — وهذا هو الحق » •

ولقد أحسن الجنيد حيث قال : حسنات الأبـــرار سيئات المقربين ، فهم صلوات الله وسلامه عليهم وان كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم ، فلم يخل ذلك بمناصبهم ، ولاقدح فى رتبهم ، بل قد تلافاهم واجتباهم وهداهم ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم : انتهى من القرطبى (جـ ١ ص ٣٠٩ (١)٠

ومعنى تلافاهم : تداركهم بالعفو ، فزال به تقصيرهم ٠

والناظر فى هذا الكلام بامعان ، يجد أنه لا فرق بينه وبين القول الأول الذى عليه الأكثرون ، وهو تنزيههم عن المعاصى ٠ فانه ذكر أن ذنوبهم التى عوتبوا بشأنها وأشفقوا منهــا كانت سيئات بالنسبة اليهم لرفعة مناصبهم ، لكنها حسنات فى حد ذاتها بالنسبة لمن هم دونهم ، فان حسنات الأبرار سيئات المقربـــين ٠ وقد كانت مخالفاتهم نادرة ، وكانت اما من باب الخطأ أو النسيان أو حسن التأويل وأثر الاجتهاد ٠

وعلى هذا فذنب آدم يعتبر من هذا الطراز ، وقد سبـــق لنا تحليله فارجع اليه فانه مفيـــد ٠

---

(١) طبع عبد المنعم عبـــد المقصود ط ٦٤ ص ١٢

كيف أغرى الشيطان آدم بعد طرده ؟

عرفت أيها القارىء الكريم أن الله أخرج ابليس من الجنة مذموما مدحورا ، بسبب تكبره على السجود لآدم وقد أمره الله به ، وعرفت أيضا أن الله أسكن آدم وزوجته الجنة بعد خروج ابليس منها ، وأباح لهما أن يأكلا منها ما يشاءان ، وحرم عليهما شجرة منها ، وأن ابليس أغراهما بالأكل منها بمختلف وسائل الاغراء ، ومنها قوله لهما : « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » ومنها اقسامه بأنه لهما من الناصحين ، ومنها قوله لآدم «هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » والقرآن الكريم يأتى بنماذج مما يقال ، ولا يأتى بكل ما يقال ، فلا بد أنه أطال فى الاغواء والاغراء حتى استجابا كما تقدم بيانه ، فكيف كان الشيطان يغريهما وهو طريد من الجنة التى كانا يعيشان بها ، وهل كان يغريهما وهو ظاهر لهما ، أم كان ذلك بطريق الوسوسة النفسية ؟ .

والجواب : أننا اذا جرينا على رأى من قال : ان الجنة التى كانا يعيشان بها بستان فى الأرض تتوفر فيه كل أسبابه الترف والنعيم ، أسكنهما الله فيه بعد أن طرد منه ابليس ، فان اغراءه لهما بعد طرده منه ، يكون بقربه منه حيث ينزل آدم ومشافهته له دون أن يدخله عنده أو يكون اغراؤه لهما بالوسوسة النفسية ، فانه يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، أو بأن يعود

الى الجنة بعد طرده منها ، مبالغة منه فى عصيانه لأمر ربه والكيد لآدم فقد عصى ربه كيدا لآدم أولا ، بامتناعــه عن السجود له تنفيذا لأمر الله ، وعصاه ثانيا بدخوله الجنة الأرضية التى حرمها الله عليه •

وكذلك يفعل العصاة الآثمون ، اذ يتركون ما أمروا بفعله ، أو يفعلون ما أمروا بتركه تمردا وفجورا •

وبالجملة : فانه لم يعد الى الجنة التى طرد منها ، ليعيش فيها عزيزا مكرما كما كان ، بل مجرما أثيما مكررا لعصيان الله •

أما اذا جرينا على رأى من يقول : انها جنة الجزاء الأخروى فيكون اغراؤه لهما بالوسوسة القلبية دون أن يدخلها ، فانهـا لا يدخلهـا كافـر •

ومن العلماء من فسر قوله تعالى فى حق ابليس : « فاهبط منها فما يكون لك أن تتـكبر فيها فاخرج انـك من الصاغرين » بمعنى : اهبط من منزلة الكرامة التى أنت بها بين الملائكة ، فمـا يصح لك بعد امتناعك عن السجود أن تتكبر فى هذه المنزلة ، فقد زالت عنك ، فاخرج من هذه المنزلة التى كنت بها ، انك الآن من الصاغرين الأذلاء •

وقد ساعد على هذا التفسير ، أنه لم يوجد فى هذا النص وما يماثله تصريح بالجنة حتى يرجع اليها الضمير فى قوله تعالى: « فاهبط منها فما يكون لك أن تتـكبر فيها » •

وبهذا التفسير : يكون ابليس باقيا فى الجنة لم يخرج منها حتى تمت مشيئة اللـه فى وسوسته لآدم وزوجه وأكلهما من الشجرة باغرائه ، واهباطهما بعد ذلك الى الأرض ليحققا الخلافة التى أرادها الله منهما ومن ذريتهما ، وأهبط معهما ابليس ليعيش الشر بجانب الخير ، فتنة من الله وامتحانا لعباده .

ولعله يشير الى هبوطه معهما ويؤكد هذا التوجيه ، قوله تعالى فى سورة البقرة : « فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين ٣٦ » حيث عبر بصيغة الجمع : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين » بعد التعبير بصيغة التثنية فى قوله « فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه » .

فهذا النص يفيد :أن ابليس لم يهبط الى الأرض الا مع آدم وحواء لا قبلهما .

أما ماقيل من أن ابليس دخل الجنة فى جوف حية أو غير ذلك فهو من الاسرائيليات التى نحذر القارىء من النظر اليها ، فهى أكاذيب لا تعقل ، فاذا هضمتها العقلية اليهودية ، فان العقلية الاسلامية تلفظها لفظ النواة (١) .

---

(١) يرى الشيخ ابو منصور انه ليس لنا البحث عن كيفية اغرائه لآدم ، لافتقارنا الى الدليل .

سؤال هــام وجوابه

قد يقال : ان آدم قد علم عداوة الشيطان له ، بامتناعه عن السجود له ، وادعائه أنه أفضل منه ، لأنه خلق من نار وآدم من طين ، والنار فى نظره أفضل من الطين ، فلا يسجــد الفاضــل للمفضول ، واذا كان الأمر كذلك فكيف يعقل أن الشيطان استطاع خداعه مع أنه يعلم بعداوته ؟ .

والجواب : أن خديعته لآدم ان كانت عن طريق الوسوسة النفسية ، فان آدم لم يشعر أنها من جهة ابليس ، بل ظن أنها حديث نفسى واجتهاد فكرى،وان كانت خديعته مشافهة ومواجهة فانها ليست بمستحيلة ، فكم من عدو يبدو لك فى ثياب صديــق ويعتذر لك آسفا على ما فرط منه فى حقك ، وتحت ضلوعه الداء الدوى ، وقلبــه ملىء بالحقد والكراهيــة ، والمؤمن غر كريم والمنافق خب لئيم .

غرض الشيطان من وسوسته وعناصرها

يقول الله تعالى فى سـورة الأعراف ، حـكاية لوسوسة الشيطان لآدم : « فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماووري عنهما من سوءاتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين (٢٠) وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين (٢١) » .

وهذه الآية يفهم منها عدة أمور ، بيانها فيما يلى :

١ ــ جاء فى صدر الآية الأولى : أن غرض الشـيطان من وسوسته أن يظهر لآدم وحواء ما ستر عنهما من سوءاتهما ــ أى عوراتهما ــ فهل كانت لهما عورات قبل الأكل من الشجرة ؟ وبأى شىء كان غطاؤها ؟ .

والجواب على ذلك : أن الله تعالى قد خلق لهما أعضـاء التناسل فعلا فى أصـل تكوينهما ، فانه سبحانه خلقهما ليجعل منهما خلفاء عن الله تعالى أو عمن كان قبلهم من سكان الأرض الذين أصابهـم الفناء ، ولاتتحقق هذه الخلافة الا بالتوالد والتكاثر ، حتى يستطيعوا عمارة أرض الله وتنفيذ مشـيئته فيها ، ولا سبيل للتوالد والتكاثر الا أعضاء التناسل بداهة .

أما قول بعض المعاصرين : ان أعضـاء التناسل لم تخلق لهـم الا بعد الأكل من الشجرة ، لأنهـا شجرة الجنس حسب فهمهم ، فلما أكلا منها نشأ عن ذلك أعضاء التناسل ، فلا سبيل

الى قبوله ، فانه فاقد الأهليـــة للصـــحة ، مناقض لصريـــح القرآن •

وبيان ذلك : أنهم لم يشـــهدوا خلق آدم وحـــواء ، حتى يحكموا بأنهما خلقا بغير أعضاء الجنس ، وأنه لا يوجد نص فى كتاب الله أو سنة رسوله ، يدل على صحة ما يزعمون ، وأنهم لم يحللوا تلك الشجرة معمليـــا ، ليعرفوا من تحليلها وتجربتها أنها تثبت أعضاء التناسل ، وأنهم لا سبيل اليها فانها من أشجار الجنة ، فالقول فى شأنها فى موضوع الجنس رجم بالغيب ، فضلا عن أن القرآن صريح فى أن أعضاء التناسل كانت موجودة ولكنها كانت مغطاة ، وأن ابليس أراد أن يكشفها فوسوس اليهما بالأكل منها ، وذلك فى قوله تعالى : « فوسوس لهما الشيطان ليبـــدى لهما ما ورى عنهما من سوءاتهما » •

أما الغطاء الذى كان يوارى سوءاتهما ، فلم نجد نصا نعتمد عليه فى بيانه ، وما قاله المفسرون : من أنها كانت مغطاة بالنور(١) فمأخذه رواية للحكيم الترمذى عن وهب بن منبه ، وما يروى عنه فمصدره الاسرائيليات غالبا ، وحيث كانا فى جنة الجزاء ، فأغلب الظن أنهمـــا كانا يستتران ببعض ثيابهما كالحرير والسنـــدس ونحوهما مما يلبسه أهل الجنة •

على أن القرآن الكريم باغفاله الحديث عن غطاء عوراتهما

---

(١) النور بنون مشـــددة مفتوحـــة هو الزهر ، ومثله النوار بنون مشددة مضمومة ، وواو مشددة مفتوحة .

تكفنا عن التعرض لبيانه ، عملا بقوله تعالى : « ولا تقف ماليس لك به علم » ولو كان يتعلق به غرض للمكلفين لبينه الله تعالى •

فلذلك :نكل العلم بحقيقة وسر اخفائه الى علام الغيوب (١)

٢ — صرح القرآن الكريم : بأن الشيطان وسوس لهما بالأكل من الشجرة ليكشف ما غطى عنهما من عوراتهما فمن أين جاءه أن الأكل منها يترتب عليه تهافت الغطاء ، وانكشاف العورة وما وجه الارتباط بينهما ؟ •

والجواب عن ذلك : أنه كان يعلم قطعا أن انكشاف العورة سيترتب على أكلهما من الشجرة ، ولذا حرص عليه وجعله غايته ، فظل يغويهما حتى حصل مراده ، من الأكل وظهور العورة على أثره •

وسبيل علمه — والله أعلم — أنه سمع من الملائكة أن آدم وحواء ان خالفا أمر ربهما فأكلا من الشجرة ، سقطت عنهما ثيابهما التى يلبسها أهل الجنة ، وظهرت لهما عوراتهما ، حتى يغطياها من ثياب أهل الأرض بعد أن يهبطهما الله تعالى اليها وأن الله تعالى حين يفعل معهما ذلك ينبههما الى وظائفهما الجنسية ، الكامنة فى تكوينهما ، والتى ستبدأ بعد هبوطهما ، وقد كانا يجهلان ذلك كله ، أما ابليس فكان على علم مبكر به ، ولهذا لما طرده الله من منزلة الكرامة بسبب عصيانه ما أمره به من

---

(١) قال بعض المتقدمين ان كشف سوءاتهما كناية عن ازالة الحرمة واسقاط الحياء .

السجود لآدم ، توعد آدم وذريتــه بأن يصدهم عن ســـواء الســبيل ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى ســورة الأعــراف : « قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصـــاغرين ١٣ قال أنظرنى الى يوم يبعثون ١٤ قال انك من المنظرين ١٥ قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ١٦ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين ١٧ قال اخــرج منهــا مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ١٨ » •

ويحكي تهديده لهم بصــورة أخــرى فى سورة الاسراء فيقول : « قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا ٦٢ » •

فاذا كان هذا اللعين قد عرف أن آدم ســـتكون له ذرية فى الأرض ، وطلب أن ينظره الله ويمهله ، فأمهله الى انقراض الجنس البشرى قبل يوم القيامة ، فتوعدهم بالاغواء ، الا قليلا منهم ، فذلك يدل على أن ابليس يعلم أن مصير آدم النزول الى الأرض والتوالد فيها ، بعد أن يعصيه بالأكل من الشجرة ، فابتدأ ينفذ وعيده فى آدم وزوجه ، قبل أن ينفذه فى ذريتهما ، فحرضهما على الأكل من الشجرة ، لتنكشف سوآتاهما فيعرفا وظيفتهما ويتهيآ لها قبل اهباطهما الى الأرض •

والظاهر — والله أعلم — أن الله تعــالى لم ينبههما الى وظيفة الأعضاء الجنسية فى الجنة ، لأنها ليست محل خلافتهما

وتوالدهما ، فلا فائدة من تنبيههما اليها هنـاك ، فلما حصلت المخالفة بالأكل من الشـجرة ، وآن أوان نزولهما الى الأرض ارشدهما الى وظيفتهما عن طريق كشف عورتهما ، وايقاظ غريزة التناسل التى كانت كامنة الى حين علمه الله وأزاده •

وكم من وظائف فى تكوين الانسان ، لم يتنبه لها الا عن طريق « الصدفة » أو التجربة ، وذلك حينما جاء الوقت الذى حدده الله لعلمه بها •

٣ — أفادت الآية : أن الملائكة أفضل من الأنبياء ، فضلا عن باقى البشر ، وذلك أن الشيطان حرضه وزوجه على الأكل من الشجرة ليصلا الى مرتبة الملائكة ، وقد استجابا ليحصلا على تلك المرتبة ، فلولا أنها مرتبة أعلى من مرتبته ، لم يكن هناك معنى لاغرائه بالأكل من الشجرة لتحصيلها ، ولا للاستجابة لما دعاهما اليه ، فضلا عن أن القرآن لم يعقب بالابطال لما أفاده اغراء ابليس من أن الملائكة طبقة سـامية ينبغى للبشر السعى اليها ، وذلك يدل على فضلهم على آدم النبى وذريته •

وقد أجيب : بأن ذلك يدل فعلا على أفضليتهم ، لكن لا من جميع الوجوه ، بل من بعضها فقط ، فللملائكة ميزات لاتوجد فى الانسان ، مثل : الأجنحة كما قال تعالى : « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع » ، كما أنهم يتنقلون فى كون الله بطريقة سريعة وبحالة

لاتتوفر للبشر ، كما أنهم لايأكلون ولا يشربون ، وأنهم خالدون الى أن ينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السموات والأرض •

ولعل هذه الأمور ونحوها هى التى تأثر بها آدم وحواء وجعلتهما يستجيبان للاغراء بالأكل من الشجرة ، حتى يحصلا عليها •

ويرى ابن عباس والزجاج وكثير من العلماء : أن المؤمنين الصالحين أفضل منهم ، لأن الملائكة لاشهوة فيهم ، فهم يطيعون الله بما جبلوا عليه من أسباب الامتثال وحتمية الطاعة •

أما البشر ففيهم الشـــهوة الجامحـــة ، فاذا تغلبوا عليها وكبحوها فهم أفضل من الملائكة الا خواصهم ، لأنهم من جملة رسل الله ، لكن خواص البشر وهم الأنبياء أفضل من خواص الملائكة •

٤ ــ ظاهر الآية يدل : على أن آدم وحواء صدقا كلام ابليس فى أن أكلهما من الشجرة يجعلهما ملكين خالدين ، ولذا أكلا منها ، فكيف يطلبان الخلد مع أن الله تعالى قال : « كل من عليها فان • ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » •

والجواب عن ذلك : أن الخلد فى اللغة : هو المكث الطويل وهما لم يطلبا الخلود الأبدى ، بل خلود الملائكة ، أى مكثهم الى نفخة الصعق •

أثر الوسوسة فى آدم وحواء

يحكيه الله تعالى فى سورة الاعراف فيقول : « فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » •

أى : أنزلهما الشيطان عن رتبة الطاعة لربهما ، الى رتبة معصيته ، بما غرهما به من القسم بالله على أنه لهما لمن الناصحين ، كما دل عليه قوله تعالى فى الآية السابقة : « وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين » وذلك حين حثهما على الأكل من الشجرة ليكونا ملكين أو من الخالدين ، فقد اعتقدا أن أحدا لايجرؤ على القسم بالله كاذبا •

فلما ذاقا الشجرة وبدآ يأكلان منها ، تهافت عنهما ثوباهما فظهر لكل منهما عورة صاحبه وعورة نفسه ، وأحسا حينئذ أنها شىء يستحيا من كشفه وظهوره ، لما أدركاه من وظيفته ، فقد نبه الله غريزتهما الجنسية عند هذا الانكشاف (١) ، ليعدهما بذلك الى ما يستقبلانه من عهدهما الجديد على سطح الأرض من اللقاء فى المضجع والذرية ، فلما أحسا بالخجل والحياء من

(١) كان هذا الانكشاف هو الميقات الذى حدده الله بحكمته على حافة الهبوط الى الأرض ، لتفاعلات الغريزة الجنسية ، وقد جعلها الله فى الأطفال حين المراهقة ، أما قبلها فالغريزة نائمة وكذلك كان الأمر فى آدم وحواء ، بعد الانكشاف وقبله .

لظهور سوءاتهما شرعا يلصقان عليهما من ورق الجنة ، سترا لعوراتهما وتغطية لأبدانهما ، بعد أن سقط الغطاء عنها •

والمقصود من ورق الجنة : ورق أشجارها العريض الذى يستر حيزا كبيرا ، مثل : ورق الموز والتين •

عتاب اللـه لآدم وحواء واعتذارهما

بعد هذا عاتبهما الله ، وذلك فى قوله تعالى : « وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين » •

ولما أدركا خطأهما : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » •

وظاهر هذا أنهما يعترفان بظلمهما لأنفسهما بتصديقه حيث وصلت عاقبته الى معصية الله والحرمان من الجنة •

ومن العلماء من ذهب الى أن التصديق لم يوجد منهما لاقطعا ولا ظنا ، وانما أقدما على المنهى عنه لغلبة الشهوة ، كما نجد من أنفسنا أن نقدم على الفعل اذا زين لنا أحد مانشتهيه وان لم نعتقد أن الأمر كما قال •

ولعل كلام الشيطان من قبيل المقدمات الشعرية ، أثار الشهوة حتى غلبت ، ونسى معهما النهى فوقع الاقدام من غير روية • انتهى •

والمراد من الشهوة هنا شهوة الأكل •

وعلى هذا الرأى يكون ظلمهما لأنفسهما بالتساهل فى الحذر حتى حصل النسيان ، وقد سبق تحقيق هذا الموضوع فارجع اليه •

واعلم أن قولهما : « ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » هو عبارة عن الكلمات التى تلقاها آدم من ربه وهو يعلمه كيف يتوب ، فهى التى عناها الله تعالى بقوله : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » والى هذا جنح ابن عباس رضى الله عنهما •

اهباط آدم وحواء الى الأرض

يحكى القرآن ذلك فى سورة الأعراف فيقول : « قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين • قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » والخطاب فى قوله: « اهبطوا منها جميعا » الآيات ،لآدم وحواء وابليس — عليه اللعنة — لأنه كان معهما يتابع تحريضه ووسوسته ، حتى أكلا من الشجرة وتم مراده منهما ، وقال الفراء : انه خطاب لهما ولذرياتهما •

والمقصود من قوله تعالى : « بعضكم لبعض عدو » — على الوجه الأول — أن الشيطان عدو للبشر ، فعليهم أن يحذروه —

وعلى الوجه الثانى — أن بعض البشر يعادى بعضا ويظلمه بسبب وسوسة الشيطان •

والمقصود من قوله تعالى : « ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين » أن الله تعالى قد كتب للبشر استقرارا على الأرض ، وتمتعا الى الحين الذى ينتهى فيه عمر كل منهم ، ثم يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين •

وبذلك أعلم الله البشر فى مواجهة أبيهم وأمهم ، وقبيل رحلة الهبوط الى الأرض ، أن مقامهم فى أرض الله مؤقت بغاية ، وليس خلودا بلا نهاية •

ثم عقب ذلك ببيان أوفى : « قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » •

أى : أنكم فى الأرض تحيون مستقرين متمتعين الى حين الموت ، وفيها تموتون وقت مجىء هذا الحين ، ومنها تخرجون وتبعثون للحساب والجزاء •

وبذلك عرف البشر مصيرهم ومآلهم فى الأرض فى شخصى أبويهم قبل أن يهبطا اليها ، كما عرفوه خبرا عرفوه واقعا فهل من مدكر ؟ •

الاجتباء والتوبة والهداية لآدم

بعد أن حكى الله عصـيان آدم فى سورة طه قال : « ثم اجتباه ربه فتــاب عليه وهدى » أى : ثم اصطفاه الله وقربه اليه فعلمه كلمات يتوب بها اليه ، هى قوله وزوجته : « ربنـــا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » فتلقاها آدم من ربه ، ونطق بها هو وزوجتـــه مع صدق النية فيها ، فقبل ربه توبته وعاد عليه بالرحمة ، وهداه الى الثبات على التوبة ، والحذر من غرور الشيطان وخديعته ، ولعل الأمر كان كذلك فى حق حواء وان لم يصرح به فى الآية .

لماذا عظم الله خطيئة آدم ؟

أخرج البيهقى فى شعب الايمان عن عبد الله المغربى قال : تفكر ابراهيم فى شأن آدم عليه السلام ، فقال : يارب خلقته بيدك ، ونفخت فيه من روحك ، وأسجدت له ملائكتك ، ثم بذنب واحد ملأت أفواه الناس من ذكر معصيته ، فأوحى الله تعالى اليه : يا ابراهيم أما علمت أن مخالفة الحبيب على الحبيب شديدة .

وذكر بعض العلماء : أن فى استعظام ذلك منه زجرا بليغا لأولاده عن أمثاله ، وقال : لا ينبغى لأحد أن ينسب اليه العصيان الا أن يكون تاليا لكلام الله ، أو راويا لحديث رسول الله .

وصرح القاضى أبو بكر بن العربى : بعدم جواز نسبة العصيان للآباء الأقربين الينا ، المماثلين لنا ، فكيف يجوز أن ينسب الى الأنبياء عليهم السلام (١) ؟ .

---

(١) راجع الآلوسى فى تفسير قوله تعالى : « وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » سورة طه .

لماذا جعلت الجنة مسكنا لآدم وحواء ؟

لما خلق الله آدم أسكنه فى الجنة لحكم عديدة منها :

١ — أنه كان بحاجة الى بيئة عاليــة تتكون فيها مــداركه وأخلاقه ، وتتنشأ فيها معارفه بآيات الله وكونه ، ليعده بذلك لما يستقبله من الخــلافة فى الأرض ، وارشاد ذريته ، ، وتبليغهم دعوة ربه ، أما غيره من الأنبياء الذين نشئوا على الأرض ، فانه تعالى كان يريهم ملكوت السموات والأرض ، ليتعلموا ويكونوا من الموقنين •

٢ — وأنه تعالى خلقه بيــديه (أى بقدرته دون الأسباب العادية فى سواه) اعتناء بخلقه ، باعتباره أصل البشرية ، وكان من تمام حكمة الله فى خلقه أن يتفضل باكمال العناية به فيجعل مسكنه وتربيته فى الجنة •

٣ — أن مفاجأته بعــد الخلق مباشرة باسكانه فى الأرض من غير اعداده لسكناها ، فيه وحشة شديدة له ، وحيرة منــه فى أمره ، وتحطيم لأعصابه ومقوماته ، اذ كيف يعيش فى أرض ليس فيها سواه ومعه امرأته ، دون أن تمر عليه فترة اعداد لتقبــل هذه الحياة الجديدة •

٤ — أنه لم تكن له دراية بتحصيــل القوت وجلب الرزق وصنع الثياب ، فلذا أوجده الله فى مكان يتوفر له فيه ما يحتاج

اليه ، دون بذل جهد ولا اعمال فكر ، فقد تعهد الله له بذلك ،قال تعالى : « ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيهـا ولا تضحى » • ومعنى (ولا تضحى) : لا تتعرض للشمس ، فان الضحى من أسمائها •

الشيطان فى حياة الانسان

يقول الله تعالى فى سورة (ص) حكاية لموقف من مواقف ابليس من آدم وذريته : « قال رب فأنظرنى الى يوم يبعثون • قال فانك من المنظرين • الى يوم الوقت المعلوم » فأنت ترى من هذا النص أن ابليس لما طرده الله من الجنة بسبب آدم ، طلب منه أن يسلطه عليـه وعلى ذريتـه ، ويمهله الى يـوم البعث فأجابه الى طلبه وهو يعلم أنه سيغويهم ويصرفهم عن طاعته فلماذا أجابه الله الى ما سأل ؟ •

والجواب عن ذلك : أنه تعالى لم يجبه الى ما سأل ، فقد طلب أن يمهله الى يوم البعث فرارا من الموت ، فأجابه سبحانه بأنه فرد ممن سبق علم الله أنهم منظرون الى يوم الوقت الذى علمه الله وعينه لفنـاء الخلائق ، فيموت كمـا يموتون • وكأنه تعالى يقول له : اننى سأبقيك حتى يموت الناس ، ولكن ذلك ليس ناشئا عن دعائك ، ولا مترتبا على طلبك ، بل لأن هذا سابق فى قضائى قبـل أن تسـألنى ، ولست وحدك الذى أمهلك الى هذا

الوقت ، بل هناك من خلقى سواك من أمهلتهم ، فأنت واحد من هؤلاء المنظرين ، كما اقتضته حكمتى .

وليعلم الانســان أن الله تعالى خلق هذه الحياة الدنيا مليئة بالمتناقضــات ، ففيها الموجب والســالب ، وفيها الخير والشر ، وفيها النفع والضر ، لأنها دار امتحان وبلاء ، وليست دار ثواب وحسن جزاء ، وكل شىء فعله الله تعالى ملىء بالحكم ، وما نعرفه بالنسبة الى ما نجهله كنقطة من بحر ، أو كرملة من قفر بل دون ذلك ، فالتسليم واجب لقدر الله ، والايمان بحكمته وكمال صنعه محتوم .

وينبغى للعاقل أن يفهم من وجود البــلاء والشيطان فى حياة الانسان ، أن هذه الدنيا ليست آخر شئون الخلائق ، وأن الناس تنتظرهم دار خالية من البلاء والأحزان ان هم أحسنوا فى دنيــاهم ولم يسيئوا ، وهذا هو الذى ينبغى أن يتوقع من البارىء الحــكيم .

اننا نرى الآفات فى زروعنا وحيواناتنا وأنفسنا ، كما نرى آثارا سيئة للشيطان فى عقولنا وارادتنا ، فهو آفة فى أرواحنا كما أن الأمراض الجسدية بلاء فى أجسادنا ، وكما أن الله تعالى منحنا الكرات البيضــاء فى دمائنــا ، لتحمينــا من ميكروبات الأمراض ، فكذلك أعطــانا المناعة العقليــة والتدينية ضــد الشيطان .

واذا كان الله تعالى قد جعل العقاقير علاجا لما قد يتسرب الى الجسم من الأمراض الحسية ، فكذلك جعل الوعظ والارشاد والاختلاف الى دروس العلم وقراءة الكتب الدينيـــة والايحاء النفسى عـــلاجا لما يتسرب الى القلوب والأرواح من الوساوس الشيطانية •

أما الاستمرار فى تقبل وساوسه ، فانه يجعل لها فى النفس أثرا يعاودها من آن لآخر ، فلابد لك من صده من أول مرة حتى لاتتطبع وساوسه فى النفس ، فتعاودك من آن لآخر ، وتفسد عليك حياتك ، فتجعلها عقدا وقلقا وأرقا ، وتبدو لك فى كل مرة كأنها شىء جديد لم تفرغ من رده منذ قريب ، وأنه بحاجة الى الجواب عنه •

وما أكثر افتراضاته الواهيـــة التى يجرك بها الى العزلة والكآبة والحزن والبعد عن العالم ، ويفســـد عليك عقلك ودينك ويضيع شخصيتك وملكاتك ومكوناتك ، وكم من أناس كاملى العقل ، استحوذ عليهم الشيطان فجعل لهم عقدا صعبة الشفاء كمن يزين لهم السرقة وهم أغنياء فيسرقون ، ومن يهون عليهم حياة البشر فيقتلون ، الى غير ذلك مما يجعلهم يستمرئون حياة الجريمـــة ، فاذا صـــحوا من غفلتهم أدركوا سخافـــة عقولهم وفظاعة جرائمهم •

وكم من انسان يعيش من وساوســـه فى جحيم ، كأن يشك فى

وجود مرض بداخله مع انه سـليم ، أو يشك فى اخلاص انسان عزيز عليه بدون مبرر ، وتصدر منهم مضحكات لاتليق بعاقل .

وانما أوجد الله الآفات والشـيطان فى مجتمعنا ، لنعرف ضعفنا وحاجتنا الى حماية الله ، واللجوء اليه بالدعاء ، ليظل اتصالنـا دائما به سـبحانه ، ليفرج الكروب ويمنح القوة ولو بقينا بدون هذه الآفات لنسينا ربنا ، ولم نذكره ونتوه عنه فى النعيم والراحة التى نحن فيها بدون آفات .

ومع أن الآفات تذكر الانسان بمفرج الكروب سبحانه ، ففى الصبر عليها ومكافحة الوسـاوس الشيطانيـة وطرحها وعدم الاكتراث بها ، أجـل الثواب وأعظم الأجـر ، وما تخفى على أحد منا حكمته ، فليسلم فيه الأمر لأحكم الحاكمين ، فهو أعلم بأبعاده وحكمته ، ومقدار مصلحة العبد أو الكون فيه .

جنود الشيطان

قد عرفنا أن الذى قام باغواء آدم هو إبليس ، ويسميه القرآن أيضا الشيطان ، قال تعالى فى سورة الأعراف : « يابنى آدم لايفتتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما •• » من الآية ٢٧ •

وعرفنا أنه توعد آدم وذريته بالاغواء والاضلال ، كما فى قوله تعالى فى سورة الأعراف حكاية عنه : « قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ١٦ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ١٧ » •

فكيف يستطيع شيطان واحد ، أن يفتن جميع أفراد الجنس البشرى ؟ •

والجواب على هذا : أنه لا يقوم وحده بفتنة الخلائق فله جنود يمارسون الفتنة بقيادته ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الشعراء « فكبكبوا فيها هم والغاوون ٩٤ وجنود ابليس أجمعون ٩٥ » أى فألقوا فى الجحيم على وجوههم مرة بعد أخرى اذ الكبكبة : تكرير الكب وهو الالقاء على الوجه •

وجنود ابليس شياطين أيضا ، قال تعالى فى سورة الأعراف: « انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » بقية الآية ٢٧ •

ولكل مكلف شيطان يقارنه اذا غفل عن ذكر الله ، قال تعالى في سورة الزخرف: « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو لـــه قرين ٣٦ حتى اذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعـــد المشرقين فبئس القرين ٣٧ » •

فمن أين جاء هؤلاء الشياطين ، هل هم أولاد هذا الشيطان الذى أغوى آدم ، أم أولاد غيره ؟

والجواب : أن ابليس وجنوده من الجن (١) ، وكما أن أصل البشر آدم وقد خلق من تراب ، فأصل الجن والشياطين : الجان وقد خلق من نار ، وكان الجن والشيطان موجودين قبل خلق آدم قال تعالى فى سورة الحجر :« ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون ٢٦ والجان خلقناه من قبـــل من نار السموم ٢٧ »، ولذا كان ابليس يفتخر على آدم بأنه مخلوق من النار ، أما آدم فمن الطين ، قال تعالى فى سورة الأعراف حكاية عنه : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ١٢ » •

ويبدو من ظاهر القرآن الكريم ، أن كل جنى يطلق عليـــه شيطان ، سواء أكان متمردا أم مسالما ، قال تعالى فى سورة (ص) بشأن ما سخره الله لسليمان عليه السلام : « فسخرنا له الريح تجرى بأمـــره رخاء حيث أصـــاب ٣٦ والشياطـــين كل بنـــاء وغواص ٣٧ وآخرين مقرنين فى الأصفاد ٣٨ » •

---

(١) ويدل لذلك قوله تعالى فى سورة الكهف : « فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » من الآية ٥٠ .

فأنت ترى أن الله تعالى أطلق على البنائين والغواصين من الجن كلمة : شياطين مع أنهم مسالمون له،كما أطلقها على المشاغبين المتمردين المقرنين فى الأغلال ، ولا غرابة فى اطلاق كل من اللفظين (الجن والشياطين) على جميـع أصنافهم ، فلفظ الجن مأخوذ من الاجتنان والاستتار ، ومنه جنه الليل — أى ستره — ولا شك فى أن الجن والشياطين مستورون عنا فـلا نراهم بصورتهـم الطبيعية رحمة بنا ، ولفظ الشيطان مأخوذ من شطن فى الأرض — أى دخـل فيها — أو من الشاطن وهو الخبيث ، أو من شطن بمعنى بعـد ، أو من شاط بمعنى احترق ، فمعظم تلك المعانى متحقق فى كل عفريت وشيطان .

وقد صح أن النبى — صلى الله عليـه وسلم — ، سمى الشيطـان عفريتا وسماه جنيا ، وأنه تفلت عليه ليلـة وأراد أن يشغله عن صلاته فأمكنه الله منـه ، وأراد أن يربطه الى سارية من سوارى المسجد يلعب به صبيان المدينة ، فذكر دعـوة أخيه سليمان فتركه .

هذا مابدا لنا فى شأنهم ، وقد وجدنا من الانصاف أن نذكر ما قاله غيرنا ، والله أعلم بالصواب أين يكون :

ذكر القرطبى فى ص ٥ من ج ١٩ فى تفسير سـورة الجن عندما تـكلم عن المسألة الرابعة أن الحسن البصرى قـال : ان الجن ولد ابليس،والانس ولد آدم،ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون،وهم شركاء فى الثواب والعقاب،فمن كان من هؤلاء وهؤلاء

مؤمنا : فهو ولى الله ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا : فهـو شيطـــان •

وروى الضحاك عن ابن عباس : أن الجن هم ولـــد الجان وليسوا بشياطين ومنهم المؤمن ومنهم الكافر ، والشياطين هم ولد ابليس لا يموتون الا مع ابليس •

حقيقة الجــن ! !

من الناس من ينكر الجن بحجة أنهم لايرونهم ، وتلك حجة واهية ، فان الكهرباء حقيقة لا شك فيها ، وان كانت لا ترى ذاتها بالعين (١) ولو سلم هذا المبدأ من صاحبه ، لجره الى الكفر بالله لأنه لا يـــراه •

والحق أن الجن موجودون بنص القـــرآن ، وهم حقيقـــة واقعة لا ينكرها الا جاهل وكافر ، وقد أنزل فى شأنهم ســـورة كاملة هى سورة الجن ، وقد جاء فى صدرها : « قـــل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » وجاء فيها : « وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا» ،وجاء فيها : «وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا(١٣) وأنا منا المسلمون ومنا القاسطـــون فمن أسلم فأولئك تحـــروا رشدا (١٤) وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا (١٥) » •

---

(١) لأن المرئـــى هو أثـــرها .

وجاء فى سورة الاحقاف : « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين (٢٩) قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم (٣٠) ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم (٣١) ومن لا يجب داعى اللــه فليس بمعجــز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبــين (٣٢) » الآيــات •

وهذه وأمثالها تدل على أن الجن جنس له عقول يدرك بها، ويستطيع فهم الحق من الباطل ، وأن منه صالحا وطالحا ، ومؤمنا وكافرا ، وقــد حجبهم اللــه عنا رحمة بنا ، فقواهم أعظم من قوانا ، ولا نستطيع أن نحتمل مواجهتهم بطبيعتهم ، قال تعالى « انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » •

وهل هم عالم مادى أم روحــى ؟ •

ليس عندنا دليل حاسم فى أمرهم حتى نجيب على هــذا السؤال بيقــين •

فاذا نظرنا الى أن منهم بنائين وغواصين ومقرنين فى الأصفاد كما كان ذلك فى عهــد سليمان عليه السـلام ، وأنهم يتناسلون ويتوالدون ، فربما بدا لنا أنهم عالم مادى ، وربما رجح هــذا ما جاء فى السنة من استحباب البسملة فى بداية الأكــل ، حتى

لاتقربه الشياطين ، وكذلك ما جاء فى السنة من تحريم الاستنجاء بالعظم ، لأنه يكسى لحما لاخواننا الجن •

أخرج مسلم عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اتانى داعى الجن فذهبت معه ، فقرأت القرآن ، فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد،وكانوا من جن الجزيرة ، فقال : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه ، يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما » وذكر باقى الحديث وفيه النهى عن الاستنجاء بالعظم •

واذا كان الجن عالما ماديا ، فعلى أية صورة هو ؟ الله أعلم بحقيقتهم •

وقد ورد أن الجن تتشكل بصور مختلفة،ومن ذلك أنها تتشكل بصورة حية ، فقد جاء فى مختصر الامام مسلم بسنده عن أبى السائب مولى هشام بن زهرة رضى الله عنه،أنه دخل على أبى سعيد الخدرى فى بيته ، قال : فوجدته يصلى ، فجلست أنتظره حتى يقضى صلاته ، فسمعت تحريكا فى عراجين فى ناحية البيت فالتفت فاذا حية ، فوثبت لأقتلها،فأشار الى أن اجلس ، فجلست فلما انصرف أشار الى بيت فى الدار ، فقال : أترى هذا البيت ؟ فقلت نعم ، فقال : كان فيه فتى منا حديث عهد بعرس ، قال : فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخندق ، فكان ذلك الفتى يستأذن — رسول الله صلى الله عليه وسلم — بأنصاف النهار ، فيرجع الى أهله ، فاستأذنه يوما فقال له رسول الله صلى

الله عليه وسلم — « خذ عليك سلاحك فانى أخاف عليك قريظة » ثم رجع فاذا امرأته بين البابين قائمة ، فأهوى اليها بالرمح ليطعنها به ، وأصابته غيرة ، فقالت له : اكفف عليك رمحك وادخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى ، فدخل فاذا بحية عظيمة منطوية على الفراش ، فأهوى اليها بالرمح فانتظمها به ثم خرج فركزه فى الدار ، فاضطربت عليه ، فما يدرى أيهما كان أسرع موتا ؟ الحية أم الفتى ، قال : فجئنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له وقلنا : ادع الله يحييه لنا ، فقال : استغفروا لأخيكم ، ثم قال : ان بالمدينة جنا قد أسلموا ، فاذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيام ، فان بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فانما هو شيطان (١) •

واذا نظرنا الى ما فى القرآن من أن بعضهم كانوا يسترقون السمع من الملأ الأعلى فيقذفون بالشهب من كل جانب ، فهمنا من هذا أنهم قوى روحية حتى تستطيع التحليق فى الملأ الأعلى•

فما الذى ينبغى اعتقاده فى شأن حقيقتهم ؟ •

اليك فيما يلى ما نراه :

الظاهر أنهم أجسام مادية ، أعطاها الله قدرة على التجرد الروحى والتشكل بأشكال مختلفة ، وذلك جمعا بين الأدلة ، والله تعالى أعلم •

---

(١) وفى الصحيح : ان لهذه البيوت عوامر ، فاذا رأيتم منها شيئا فحرجوا عليها ثلاثا ، فان ذهب والا فاقتلوه فانه كافر . القرطبى ج ١٩ ص ٦ طبعة منير تفسير سورة الفجر •

وأخرج البيهقى فى الأسماء وأبو نعيم والديلمى وغيرهم باسناد صحيح — كما قال العراقى — عن أبى ثعلبة مرفوعا « الجن ثلاثة أصناف ، فصنف لهم أجنحة يطيرون فى الهواء ، وصنف حيات وكلاب ، وصنف يحلون ويظعنون (١) » والله تعالى أعلم .

لا تنزعج

أيها الأخ المسلم : لا تفزع من الحديث عن الجن والشياطين ، (فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين) فقد جعل سبحانه ضوابط فى كونه لتوفير الأمان لعباده ، ولهذا : لا يحدث من أضرار الجن الا أمور نادرة جدا ، فربما تمر عشرات السنين فلا تسمع عنهم حدثا ، ولا يفزعك أمر الشياطين فانبذهم نبذ النواة ، فان ربك يقول فى شأن الشيطان : « انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » .

وأعلم يا أخى المسلم : أن لنا كتابا اسمه : (غذاء الأرواح) تحدثنا فيه باسهاب عن موضوع الجن ، وبينا فيه كيف نتعوذ منهم ونتقيهم . وقد طبعه المجلس الأعلى للشئون الاسلامية وأخرجه فى منتصف جمادى الثانية سنة ١٣٩٥ هـ الموافق ٢٦ من يونية سنة ١٩٧٥ م — فارجع اليه فانه مفيد .

---

(١) الالوسى ج ١٤ ص ٣٣ .

كيف مارس آدم حياته على الأرض ؟

كان آدم وحواء يعيشان فى الجنـــة مكفولى الرزق ما بين طعام وشراب وكساء ، قال تعالى : « ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى • وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » •

فلما أكـــلا من الشجرة بعـــد اغواء ابليس ، أمرهما الله بالهبوط الى الأرض ــ كما تقـــدم بيانه ــ فكيف استطاع آدم وزوجه أن يستقبلا عهدهما الجـــديد ، وأن يمارسا حياتهما على الأرض ، وهو فيما يبـــدو لا يعرف من أسباب الحيـــاة وشئون العيش فيها شيئا ؟ •

ولقد حاولت أن أجد بيانا وثيقا فى هذا الشأن ، فأعوزنى ذلك ولم أجد الا التسليم بأن الله تعالى هيـــأ له أسباب عيشه الجديد ، وألهمه ما يصنعه ، أو أمر بعض ملائكته أن يعلموه أو يساعدوه ، وأنه تعالى أوجد له رصيـــداً فى الأرض من الغـــذاء والكساء ، حتى يستنبت غذاءه ، ويصنع كساءه ، ولله عجائب فى هذا الشأن ، لا يبعد معها أن يهيىء لآدم أسباب حياته فيها بأية وسيلة •

فأنت ترى الطفل بعد أن يخرج من بطن أمـــه ، يحول الله غذاءه الذى كان يصل اليه فى رحمها الى صدرها ، وبعد أن كان يتناوله فى الرحم عن طريق الحبل السرى ، أصبح يتناوله بفمه

من ثديها ، وقد ألهمه الله تعالى كيف يمتص اللبن منه ، وكيف يتركه اذا شبع ، وكيف يطلبه بالصياح اذا جاع .

ويقول علماء الأحياء : ان ثعابين السمك حين تريد أن تلقى بيضها من جوفها ، تذهب الى شواطىء جزيرة برمودا ، فتضع بيضها فى المياه الضحلة هناك ، وتتعهده بعد أن يفقس ، حتى تستطيع صغارها الاعتماد على أنفسها ، فتموت الكبار ، وحينما تقدر الصغار على الرحلة ، تأخذ سبيلها فى البحار فى نفس الخط الذى سلكه أصولها ، حتى تصل الى حيث كانت تعيش تلك الأصول بالهام الله تعالى ! .

وكذلك الطيور : خلق الله لها احساسا داخليا يشبه (الرادار) تدرك به أين توجد المراعى ، فترحل اليها صيفا أو شتاء ، بالهام داخلى من العزيز الرحيم .

واذا كان الأمر كذلك : فلابد أن الله هيأ لآدم ما يستطيع به أن يعيش ، وعلمه كيف يمارس حياته الجديدة .

ويستأنس لذلك بقوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » فان معناه كما يقوله المحققون : أنه تعالى علمه الأسماء والمسميات والأوصاف والمصالح المتعلقة بشئون الأرض التى سوف يعيش عليها .

ولقد كتب المفسرون فى هذا الشأن ، وحاموا بما كتبوه حول هذا المعنى ، فقد ذكر الآلوسى فى تفسير قوله تعالى : « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا » :

أن الجبائى قال : ان الله أنزل ذلك على آدم وحواء من الجنة حين أمرهما بالهبوط من الجنــة ، فحمــل الانزال فى الآية على ظاهره .

وأخرج ابن عســاكر بســند ضعيف عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أهبط آدم وحواء عريانين جميعا ، عليهما ورق الجنة ، فاصاب آدم الحر حتى قعد يبكى ويقول لها : يا حواء قد آذانى الحر ، فجاء جبريل بقطن ، وأمرها أن تغزله ، وعلمها وعلم آدم ، وأمره بالحياكة وعلمه » .

وجاء فى خبر آخــر أنه عليه السلام ، أهبط ومعه البذور وفى خبر آخر رواه ابن المنذر عن ابن جريج أنه عليه السلام أهبط ومعه ثمانية أزواج من الابل والبقر والضأن والمعز : الخ.

وبما أن هذه الأخبار كلها ضعيفة لايمكن التعويل عليهــا فالذى ينبغى أن نذهب اليه هو ما قدمنـــاه : من أن الله تعالى هيأ له أسباب الحياة الجديدة ، وأســباب الأنس والرضــا بها وليس بلازم أن ينزل الله معــه تلك الأســباب من الجنة ، فان الله تعــالى قادر على أن يخلقها له من جديد ان لم تكن موجودة فى الأرض قبل نزوله .

على أن بعض المفسرين ذهب الى أن آدم خليفــــة فى الأرض ، عن خلق ســبقوه اليها ، فأى مانــع من أن يكون من بقاياهم ما ينتفع به آدم ، وبغــير هذا وذاك فان الله على كل شىء قدير .

اجمال ما تقدم فى شأن آدم

قد علمت المرحلة الأولى فى تكوين الانســـان ، من خلال ما حدثنـــاك به عن خلق آدم عليه الســـلام ، وعرفت أن هذه المرحلة بدأت بالتراب الذى أجـــرى الله عليـــه أطوارا مختلفة وانتهت الى انســـان جميل الصـــورة عليم بالأسماء وخصائص الأشياء ، وأن الملائكة من أجـــل عظمة تكوينه ، سجدت اجلالا وتمجيدا لخالقه العظيم ، وأنه تعالى خلق منه زوجه ، كما قال تعالى فى أول ســـورة النساء : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منهـــا زوجهـــا » ، وقد بينا لك آراء العلماء فى معنى خلق زوجه منه ، وبينا أن الله جعل لهما الجنة مسكنا ، ولم يجعلها لهما وطنـــا اذ قال لهما : « اسكن أنت وزوجك الجنة » ، وذلك حتى يأتى أوان نقلهما الى الأرض مقر خلافتهما ، وهذا الأوان هو أكلهما من الشـــجرة ، وأن الله أهبطهما الى الأرض بعد ما أكلا منها ، تنفيذا لمشيئته جل وعلا وذلك ليباشرا ما كتبه الله لهما ، من انجـــاب الذرية وعمـــارة الأرض ، والخلافة فيها عن الله أو عمن كان قبلهما ، فمن عسى أن يكون قبلهما ؟ .

وقد تكلم المؤرخـــون والكاتبون فيمن كان يعمر الأرض قبل آدم :

فمنهم من قال : انهـــا كانت مسكنا للجن ، فاقتتلوا حتى أفنى

بعضهم بعضا ، وقد جلا من بقى منهم الى القفار والجبال والبحار وجزرها •

ومنهم من قال : ان الآدميين قد تكرر خلقهم ، فكلما فنيت ذرية آدم منهم خلق الله آدم آخر وأتبعه ذريته •

وأصحاب هذا الرأى اختلفوا فى عددهم ، ففى كتاب : (جامع الأخبار) أنهم كانوا ثلاثين آدم ، وروى ابن بابويه فى كتاب التوحيد ، خبرا طويلا عن جعفر الصادق جاء فيه : لعلك ترى أن الله لم يخلق بشرا غيركم ، بلى والله : لقد خلق ألف ألف آدم ، أنتم فى آخر أولئك الآدميين •

ومثل ذلك نقل عن : (محمد الباقر بن على بن الحسين رضى الله عنهم) ، وذكر الشيخ : محيى الدين بن عربى فى فتوحاته : أنه قبل آدم بأربعين ألف سنة ، آدم غيره • الى غير ذلك مما نقله الآلوسى فى تفسيره : (النفس الواحدة) فى قوله تعالى : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » — أول سورة النساء —

ولكن القول بتعدد آدم ضرب من الرجم بالغيب ، ومخالف لظاهر القرآن الكريم ، كما أننا لم نجد سندا يعتمد عليه فى بيان من كان يسكن الأرض قبل آدم وحواء ، ولعل الله تعالى لم يشأ أن يشغلنا بالحديث عن قوم بادوا (١) ، لكى نهتم بحاضرنا

(١) هذا الكلام يدور على فرض أن آدم وذريته خلفاء فى الأرض عن قوم سبقوهم اليها وبادوا ، أما على رأى من يقول : انهم خلفاء الله تعالى فى الأرض فالأمر فيه واضح .

فنعمر الأرض التى استخلفنا الله فيهـا ، ونعبده ولا نشرك به شيئا ، ونستمد منه العون فى أمرنا كله .

الأرض التى اهبط فيها آدم وحواء

اختلف المفسرون والمؤرخون فى تعيين الأرض التى أهبط بها آدم وحواء فقيل : بالهند على جبل يقال له (نود) بأرض سرنديب ، أما حواء فقد أهبطت بجده ، ويعزى هذا القول الى على وابن عباس وقتادة وأبى العالية .

ويروى أنه طلب حواء وسعى اليهـا حتى أتى (عرفات) فوجدها ، وتعارفا هناك فسميت (عرفات) .

وقيل : ان لقاءهما كان بمزدلفة ، فقد ازدلفت اليه هناك وجمعا بها فسميت مزدلفة كما سميت جمعا .

وقيل : أهبط آدم بالأبلة ، على شاطىء دجلة .

ولا سبيل لنا الى الثقة بشىء من هذه الروايات ، حيث لاسند لها من كتاب الله أو سـنة رسوله ، ويغلب على الظن : أنه نزل بأرض صالحة للزراعة ، حتى يستطيع أن يزرع فيهـا قوته ، والله تعالى هو الذى يعلمها بعينها .

ولابد أنه تعالى علمه كيف يستنبتها كمـا علمه الأسـماء كلها ، وأنه آتاه الأسباب التى يستطيع أن يعيش بهـا .

وقد ذكر ابن الأثير فى تاريخـه الكامل ، أن الله أنزل له جبريل ومعه صرة فيها حنطة ، وأمره أن ينثرها فى الأرض ففعله

فأنبتها الله من ساعته ، ثم حصدها وجمعها وفركها وذراها وطحنها وعجنها وخبزها ، وكل ذلك بتعليم جبريل ، كما علمه بقدح الحجر والحديد كيف يستخرج النار ، وعلمه كيف يحرث الأرض ، الى غير ذلك مما ذكره •

ولما كان ابن الأثير لم يثبت ما يقوله بدليل سمعى ، فلذا لانستطيع أن نتحمل مسئولية صحته والله أعلم بحاله •

المرحلة الثانية فى تكوين الانسان

يقول الله تعالى فى سورة (المؤمنون): «ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ١٢ ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ١٣ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ١٤ ثم انكم بعد ذلك لميتون ١٥ ثم انكم يوم القيامة تبعثون ١٦ » •

وتفسير خلق الانسان (من سلالة من طين) : اما ما تقدم فى آدم ، ويكون جنس الانسان كله مخلوقا من الطين ، تبعا لخلق أبيه آدم منه ، واما أن الله سبحانه وتعالى أنشأه من الأغذية التى هى سلالة وخلاصة من الطين المشتمل على الماء الذى جعل الله منه كل شىء حى ، كما قال تعالى «وجعلنا من الماء كل شىء حى » •

فان الأغذية التى استخلصها الله من تربة الأرض والهواء

تتحول الى دم فى الوالدين ، وبعض الدم يتحول الى نطفتى الرجل والمرأة ، ومنهما يتكون الجنين ، ولا نرى حبا ولا نباتا ولا لحم حيوان الا ومنشؤه الطين وتربة الأرض التى نزرعها لأقواتنا ، أو ينبتها الله دون جهد من المخلوق •

وينسجم هذا الرأى مع قوله تعالى « ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين » عقب قوله « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين » • ويعزى هذا الرأى الى ابن عباس رضى الله عنهما •

والنطفة التى جعلها الله فى قرار مكين ، هى مزيج من ماء الرجل وماء المرأة ، فللمرأة ماء كماء الرجل ، ففى صحيح البخارى عن أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : « جاءت أم سليم امرأة أبى طلحة الى رسول الله صلى اللهعليه وسلم ، فقالت : يارسول الله : ان الله لا يستحيى من الحق هل على المرأة من غسل اذا هى احتلمت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم اذا رأت الماء ، فغطت أم سلمة وجهها وقالت : يارسول الله • أو تحتلم المرأة ؟ قال : نعم تربت يمينك فبم يشبهها ولدها »•

ويجوز أن يراد من النطفة ماء الرجل، والاقتصار عليها لأنه لولا تلقيحه بويضة المرأة بحيوانه المنوى ، لما تخلق منها الجنين ، ولكن حملها على الماءين أولى •

وللمرأة ثلاثة مياه :

(أحدها) ماء يخـــرج من المهبل لزج القوام ، وظيفته تسهيل العملية الجنسية .

(وثانيها) مـــاء لزج يخرج من فم الرحـــم لهذا الغرض وهما يخرجان عند الجماع أو احتلام المرأة .

(وثالثها) ماء يخرج من مبيضى المرأة مع بويضتها ، فى منتصف كل شهر حيضى ، ويوصلها الى مكان تلقيحها فى القناة الفالوبية المتصلة بالرحم ، حيث يلقحها أقوى الحيوانات المنوية للرجل عند اللقاء ، وفى اليوم الرابع بعد التلقيح ، تصل النطفة على شكل خلايا متماسكة الى الرحم ، عن طريق القناة الفالوبية وبعد اليوم السابع من التلقيح ، تلتصق بجدار الرحم ، وحولها غشاء يقيها (١) .

وهذه الرحم هى القرار المكين لها ، لتمكنها وثباتها مهما ثقل الحمل ، وبالتصاق النطفة برحم الأم تتغذى بدمها ، بمعونة جهاز خاص بها فى جميع أطوار تخليقها ، وتظل النطفة فى تطور ، حتى تصل فى آخر الأسبوع السادس الى جنين طوله عشرون ملليمترا تقريبا (أى ٢ سنتيمتر)ويسمى هذا الطور طور النطفة باعتبار أوله ، ويليه دور العلقة ، وذلك مأخـــوذ من قوله تعالى : « ثم خلقنا النطفة علقـــة » وتطلق العلقة لغة على الدم الأحمـــر أو بشرط أن يكون غليظا ، وعلى ما يعلق بسواه ، وعلى الدودة التى تعلق .

---

(١) عن كتاب البيان فى أصل تكوين الانسان ـــ لأحمـــد بك الحسينى .

واللائق بتكوين الجنين هو المعنى الثالث والرابع ، فان الجنين لايكون دما فى ذلك الوقت ، بل جسما صغيرا معلقا بجدار الرحم ، يشبه الدودة العالقة ، وحوله دم داخل غشاء ، وطوله عشرون ملليمترا فى آخر الأسبوع السادس — كما تقدم — وثلاثون ملليمترا فى آخر السابع ، ويستمر هذا الطور أربعين يوما ، والعلقة فى نمو مطرد،حتى تصل فى نهايته الى طور المضغة ويشير الى ذلك قوله تعالى : « فخلقنا العلقة مضغة » .

والمضغة قطعة لحم قدر ما يمضغ ، وهذه المضغة تتحول من حال الى حال مناسبة ، حسب أجزاء البدن المختلفة ، ومن ذلك : تحويل جزء منها الى هيكل عظمى (١) ، ويشير الى ذلك قوله تعالى : « فخلقنا المضغة عظاما » وتحويل الجزء الثانى منها الى لحم يكسو العظام ، وغضاريف فى أطرافها ، والى أوتار تربط اللحم بالعظم ، وتربط العظام بعضها ببعض ، والى أعصاب تتحكم فى أجزاء الجسم المختلفة ، ويشير الى بعض ذلك قوله تعالى : « فكسونا العظام لحما » ويمكث هذا الدور أربعين يوما .

وسمى الجنين مضغة باعتبار أوله ، اذ يكون فى مظهره وقتئذ قطعة لحم صغيرة قدر ما يمضغ ، غير بادية التخليق وهى عند مزيد الفحص : لها رأس وأطراف وعينان ، أطبق

(١) أول ما تتكون العظام تكون أغشية ، ثم غضاريف ، ثم تيبس فتكون عظاما .

عليها جفناهما وقلب وغير ذلك ، وطول الجنين فى نهـاية الشهر الثالث مائة ملليمتر (أى ١٠ سـم عشرة سنتمترات) ووزنه نحو ٢٧ سبعة وعشرين درهما (٨٤ جراما تقريبا) •

وفى آخر هذا الدور يعظم نموه ، ويكون طوله مائة وثمانين ملليمترا (أى ١٨ سـم ثمانيـة عشر سنتيمترا) ووزنه نحـو سبعين درهما « ٢١٨ جم تقريبا » ، وعندئذ يكون قد وصل الى الحد اللائق بنفخ الروح ، فتنفخ فيـه وعمره اذ ذاك أربعـة أشهر ، ويشير الى ذلك قوله تعالى : « ثم أنشأناه خلقا آخر » بأن جعله انسانا حيا ذا سمع وبصر واستعداد للنطق ، مباينا لمبدأ خلقه ، دون أن يكون للأب والأم دخل اختيارى فى هذا التكوين ، فهو بجعل الله وحده ، وفى ذلك يقول الرسـول — صلى الله عليه وسلم — فى حديث صحيح أخرجه البخارى وغيره : « ان أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله وأجله ورزقه وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح » الخ •

والمراد بجمع خلق الانسان الوارد فى الحديث : أن تجمع الحيوانات المنوية من الرجال ببويضات النساء فى بطونهن ، كما سنعرض له تفصيلا بعد ان شاء الله تعالى •

وقد وافق الحديث الطب والواقع ، فان الحياة ذات الحركة

تكون فى الشهر الخامس ، وقد أشار اليها الحديث الشريف بنفخ الروح .

واعلم أن الحياة تلازم النطفة منذ عمليـــة التلقيح ، كما سنبينه تفصيلا .

وانما لم يذكـــر القرآن ولا السنة تفاصيل خلق الجنـــين بطريقة أوســـــع مما ذكر ، مخاطبـــة للناس وقتئذ بما تطيقه عقولهم ، ففى الحديث : « أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم » وأخـــرج البخارى عن على رضى الله عنه أنه قال : « حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله » وفى صـــحيح مسلم عن ابن مسعود : « ما أنت بمحدث قوما حديثا لاتبلغه عقولهم الا كان لبعضهم فتنة » .

وبعد بيان الخلق العظيم قال اللـــه تعالى ــ بيانا لحقـــه وتعليما لخلقه ــ : « فتبارك الله أحسن الخالقين » أى : فتعالى الله وتنزه عن سمات النقص ، أحسن الخالقين ، وأعظم المقدرين فهو وحده المبدع الحكيم ، أما غيره فمصور ورســـام ، استمد قواه من واهب القوى ، ومانح المزايا والهبات ، وحسبـــك : فى ابداعه سبحانـــه : أنه أودع كل جزء فى الانسان عجائب تحير الأفكار ، وترتفع عن المحاكاة ، وتجل عن الوصف .

يروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لما سمع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يتلو هذه الآيات ، الى قوله : « ثم أنشأناه خلقا آخـــر » قال فتبـــارك الله أحسن الخالقين

فقال رسول الله ــ صلى الله عليـه وسلم ــ : « هكـذا نزل ياعمر » •

ولا يقدح ذلك فى اعجاز القرآن ، لأن اعجاز هذه الآية بما قبلها كما تشير اليه الفاء ، ولأن المتحدى به أقصر سورة ، ولأن ذلك من حسن نظم القرآن وقوة اعجـازه ، ذلك أن دلالة صدر الكلام على عجزه ، يدل على كمال بلاغته وقوة فصاحته ، وكثير من آيات القرآن كذلك ، وقد مدحت بعض الأشعار بذلك ، قال الشاعر مادحا :

قصائد ان تكن تتلى على ملأ   صدورها علمت منها قوافيها

نهاية الانسان

يقول الله تعالى فى شأن نهاية الانسان : « ثم انكم بعـد ذلك لميتون ۰ ثم انكم يوم القيامة تبعثون » أى : ثم انكم بعد هذاالابداع فى خلقكم ، لميتون مهما طالت حياتكم ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور ، فيشغلكم عنـه بناعم العيش ، وسعة المال والجاه ، وقوة السلطان ، وسـلامة البدن فكل ذلك له غاية ، وأنتم الى فناء ، ثم الى بعث للحساب والجزاء كما قال تعالى : « ثم انكم يوم القيامة تبعثون » •

ان لله عبـادا فطنـا   طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
فكروا فيهـا فلما علموا   أنهـا ليست لحى سـكنا
جعلوها لجـة واتخذوا   صالح الأعمال فيها سفنا

اخراج الحى من الميت والميت من الحى

يزعم بعض المفسرين أن معنى قوله تعالى : « يخرج الحى من الميت » يخرج الجنين الحى من النطفة الميتة ، ومعنى قوله : «ويخرج الميت من الحى» يخرج البيضة الميتة من الدجاجة الحية وهذا التفسير باطل ، فان النطفة والبيضة مليئان بالحياة ، ولولا الحياة فى كلتيهما لمـا تحولت النطفة الى جنين ، والبيضـة الى دجاجة ، وسنشرح ذلك بعد بتوفيق الله تعالى .

والصوب فى تفسير « يخرج الحى من الميت » : أنه تعالى يخرج الانسان من التراب كما كان ذلك فى آدم عليه السلام ، وكما هو الحال فينا ، فان أصل نطفة الرجل وبويضة المرأة الأغذية التى يطعمانها ، والأغذية ميتة عندما تتحول الى طعام ، وقـد أخرج منهـا الانسان الحى ، وكـذلك الشأن فى الحيوانات المختلفـة أخرجها الله من الأغذية الميتة (١) .

ومن اخراج الحى من الميت : اخراج العالم من الجاهل والذكى من الغبى ، والشجاع من الجبان ، والمؤمن من الكافر .

والصواب فى تفسير « يخرج الميت من الحى » : أنه تعالى يميت كل حى ويفنيـه من انسان وحيوان وكـذا النبات ، فان للنبات حياة اذا كان مخضرا على سوقه فى مزرعتـه ، فان ذبل

(١) ويمكن ان يراد من الميت فى كل ذلك التراب الذى نبتت منـه الاغـذية .

فذبوله موته . ومن معانى اخراج الميت من الحى : اخراج الجنين ميتا من بطن أمه وهى حية ، واخراج الجاهل من العالم ، والغبى من الذكى ، والكافر من المؤمن وما شاكل ذلك .

أطوار خلق الجنين تفصيلا

قد علمنا مما تقدم أطوار خلق آدم ، وما انتهى اليه من الهبوط الى الأرض مع زوجه ، ليباشرا انجاب الذرية لعمارة أرض الله والخلافة فيها ، وبعد ما هبط الى الأرض ، ابتدأت المرحلة الثانية لتكوين الانسان ، وهى خلقه فى رحم المرأة ، بعد مضاجعة الرجل لها ، وبيان هذه المرحلة فيما يلى :

عندما يشاء الله أن يخلق نفسا جديدة ، يبعث فى نفس الرجل والمرأة الرغبة القوية فى اللقاء الجنسى ، وحينما يلتقيان يخرج من كليهما سائل شهوانى ، ويحتوى سائل الرجل (منيه) على الحيوانات المنوية ذات الذكورة ، ويحتوى سائل المرأة الخارج من مبيضها على بويضة واحدة ، وهى تخرج منها مرة فى كل شهر حيضى .

ويحتوى السنتيمتر المكعب من السائل المنوى ، على عدة ملايين من الحيوان المنوى وطول الحيوان المنوى (٥٢) ميكرون والميكرون : ١ ـــ ١٠٠٠ واحد على ألف من المليمتر ، وكل حيوان منوى له رأس وجذع وذيل ، كما يحتوى السائل المنوى أيضا على افرازات غدة البروستاتا ، لكى تعيش فيها الحيوانات

المنوية ، ويمكن الحيوانات المنوية أن تتحرك وتصل من الفرج الى الرحم ، ومنه الى القناة الفالوبية ، التى تصل بين الرحم ومبيضى المرأة ، وفى هذه القناة يقابل البويضة حيوان منوى واحد فقط ، هو أقوى الحيوانات المنوية التى صحبته ، ويخترق رأسه جدار البويضة ويبقى ذيله خارجها ، وبذلك يتم تلقيح البويضة (وقطرها ١١٧ مائة وسبعة عشر ميكرونا تقريبا) أى : أنها أكثر من ضعف الحيوان المنوى •

وانما يلقحها أقوى الحيوانات المنوية ، ليكون نسل الانسان قويا ومثل ذلك : يحصل (لليعسوب) (١) ، فانها تختار لتلقيحها أقوى طائفة الذكور من النحل ، وبعد تلقيح الحيوان المنوى للبويضة ، تتحد النواتان فيهما ، وتتكون منهما الخلية الأولى وتنقسم بسرعة الى خليتين ، ثم الى أربع ، ثم الى ثمان — وهكذا — وكل ذلك فى القناة الفالوبية •

وفى اليوم الرابع للتلقيح ، تكون الخلية قد وصلت فى انقساماتها الى مجموعة كثيرة من الخلايا متماساكة ، وتسمى (موفيولا) وتنزلق يومئذ الى الرحم ، وبعد ذلك يظهر فراغ فى داخل هذه (الموفيولا) وعندئذ تسمى (بلاستيولا) ثم تلتصق هذه الأخيرة بجدار الرحم ، حيث تكون المشيمة التى يحصل الجنين من خلالها على الغذاء من أمه ، ويحصل الالتصاق بعد سبعة أيام ونصف تقريبا من التلقيح •

---

(١) اليعسوب : ملكة النحل •

وتأخذ هذه (البلاستيولا) فى النمو السريع ، وتظهر فيها فجوة أخرى ، أما الخـلايا التى تبقى بين الفجوتين ، فهى التى ستكون الجنين المقبل ، وباقى الخلايا تكون الأغشية التى تقى الجنين ، ويكون الجنين فى هذه الحالة طبقة من الخلايا لا تمييز بينهـا •

وفى خلال الأسبوع الثالث ، يبدأ التمييز بين خلايا الجنين فيظهر الجزء الذى سيكون الرأس ، والجزء الذى سيكون العظام والجزء الذى سيكون الذيل ، ويلاحظ أن الجنين قبـل أن يتم خلقه له ذيل •

وباستمرار النمو يستمر التمييز بين الأعضاء ، ففى خلال الأسبوع الرابع يمكن تمييز العين والمخ الأولى ، كما يبدأ ظهور الأذنين ، وبراعم اليدين والرجلين ، وفى هـذا الأسبوع يبـدأ القلب فى العمل •

أما فى الأسبوع الخامس : فيمكن تمييز الوجـه ، كما أن الجنين يتقوس ويتخذ شكل الهلال ، كما تطول الأطراف ويبـدأ ظهور المفاصل •

أما عظام اليدين والرجلين : فانها تتكون من البراعم التى تظهر من الجسم ، ثم يتكون اللحم حول هذه العظام •

ويزداد تقوس الجنين فى الأسبوع السادس ، حتى قد يمس رأسه ذيله ، وطول الجنين فى أول هـذا الأسـبوع نحو ١٣ ملليمترا •

وفى الأسبوع السابع تظهر الرقبة بشكل أوضح ، ويتكامل شكل الوجه والأذنين والأنف ، ويختفى الذيل ، ويمكن تمييز الأصابع ، كما تظهر الأعضاء التناسلية الخارجية ، بحيث يمكن تمييز نوع الجنين ، وفى نهاية هذا الأسبوع يكون طول الجنين (٣٠) ثلاثين ملليمترا وحينئذ يأخذ الجنين شكل الانسان العادى الا أن رأسه كبيرة جدا ، وأطرافه صغيرة •

يأخذ الجنين فى النمو على هذه الحالة حتى الشهر الثالث حيث تطول الرقبة ، وتقفل الجفون على العيون (وطول الجنين حينئذ (١٠) عشرة سنتيمترات) •

وفى خلال الشهر الخامس تبدأ حركات الجنين فى بطن أمه حيث تم خلقه ، وهذا هو الذى عناه الله بقوله : « ثم أنشأناه خلقا آخر » وعنته السنة بقوله — صلى الله عليه وسلم — بعد دور المضغة : « ثم ينفخ فيه الروح » المقصود بنفخ الروح فيه حينئذ : اعطاؤه دفعة قوية من الحياة تمكنه من الحركة ، بعد أن تم خلقه ، فان الحياة موجودة فيه منذ اتحاد الحيوان المنوى بالبويضة ، ولايمكن نمو الجنين الا اذا كان حيا منذ تلقيح البويضة حتى يولد •

وفى الشهر الخامس المذكور يظهر شعر الرأس ، ويكون طول الجنين فى آخره : (٣٠ ثلاثين سنتيمترا تقريبا) •

وفى نهاية الشهر السادس تبدأ الجفون فى التفتح ثانيا

ويبلغ طولـه : (أربعين سنتيمترا ، ووزنه ٥ر ١ كيـلو جرام ونصف) ، ويستمر الجنين فى النمو ، وهو محاط بثلاثة أغشية وحوله السائل الأمنيوتي ، ليكون محفوظا من الصدمات الخارجية حتى يولد باذن الله تعالى ، فى نهاية الشهر التاسع غالبا ، وطوله اذ ذاك خمسون سنتيمترا ، ووزنه من ٣ — الى — ٣½ كيلو جرام .

التلقيح الصناعى فى نظر الاسلام

التلقيح الصـناعى يكون بنقل نطف من ذكور الانسان والحيوان الى اناثهمـا ، من غـير مباشرة بين الذكور والاناث وهو فى الحيوان جائز لأنه لايترتب عليـه شىء من المحـاذير أما فى الانسان فممنوع منه شرعا ، لما يترتب عليه من المفاسد والمحاذير ، فان النظام الانسـانى قائم منذ أول الخليقة على تكوين الأسر بالطريق المعـروف ، وفق ما جـاءت به الأديان السماوية وحثت عليه .

ولقد حرص الانسان — حتى فى العصور المظلمة — على العناية بنسبه ، لما له من الفوائد العظيمة ، ومن أهمها التراحم والتوارث بين أفراد الأسرة الواحـدة ، وتعاونهـم فى السراء والضراء .

فمن للأب المريض أو الفقير سوى ولده المنتزع من لحمه ودمه وعظمه وعصبه ؟ .

ومن للزوج سوى زوجته المقصورة عليه الراضية به المرتبطة

معه برباط قدسى ، لم توهنه صلة بغريب ، من بعيد أو قريب ؟ .

ومن للزوجة سوى زوجها ورجلها الشرعى ، المطمئن الى تصونها ونظافة عرضها وطهارة فراشها ؟ .

ومن يستحق أن يرث مالك سوى من يتصل بدمك فانه قطعة منك .

بهذا يأمر العقل ، واليه تطمئن النفس ، وعليه يحرص الشريف الأبى ، وبه نزلت الشرائع السماوية .

ولما كان التلقيح الصناعى بين بني الانسان ، يخلو من هذه المعانى الشريفة ، فانه يحرم قطعا ، وليس موضع خلاف بين العلماء ، سواء عرف صاحب النطفة أم لم يعرف ، فكما يحرم غشيان الأجنبى للمرأة بنفسه ، يحرم اتصاله بها عن طريق التلقيح الصناعى ، فكلاهما سفاح ملوث للأعراض .

انظر الى الرضاع ، فان أحكامه كما تثبت بمص الطفل لثدى مرضعته ، فانها تثبت أيضا باعطائه لبنها عن طريق زجاجة أو ملعقة أو نحوهما ، فان الآثار المترتبة على كلتا الطريقتين واحدة .

ومعلوم أن الزنى ما حرم الا لخلطه الأنساب ، وتحطيمه صروح الأسر ذوات الخواص الدموية والجسدية ، والعقلية المتشابهة ، وعدوانه على الاستقرار النفسى والعاطفى فيها

وتلويثه الأعراض بلوثة السفاح ، وقضائه على الارتباط العاطفى الطبعى بين أفراد الأسرة الواحدة .

وبما أن التلقيح الصـناعى فيه كل هذه الموبقات : فلهذا وجب أن يكون حراما مثل المباشرة الجنسية بـين الرجل والمرأة التى لاتحل له .

عقوبة التلقيح الصناعى

لو نظرت الى التلقيح الصناعى من حيث آثاره ، لوجدته مثل الزنى كما تقدم بيانه ، وكان من شأن هذه المماثلة أن تعاقب من ترتكبه عقوبة الزنى بأن يقام عليهـا الحد رجما بالحجارة حتى تموت ، لكنها أفلتت من ازهاق روحهـا بهـذا الرجـم لاشتراط المباشرة الجنسية لاقامته .

وعلى ولى الأمر أن يمنع انتشار هذه الرذيلة بين الناس أن وجدت ، بفرض العقوبة الرادعة عنها ، تثبيتا لشرف الفضيلة والعفة بين الأمة المسلمة .

واجب الزوج نحو التلقيح الصناعى

على الزوج أن يعظ زوجته ان بدت منها رغبـة فى مقارفة هذه الجريمة الشنعاء ، وأن يفهمها حـرمة هذا الرجس ، وأنه يورثها واياه سوء القالة .

ومن يتغافل عن هذا الاثم ويرضى به فهو عديم الاحساس واهن الأخلاق ، ولهذا لايعنيه أن يذود عن كرامتـه وعرضـه ولايهتم بولوغ الكلاب الضالة فى انائه كما نبينه .

تأثير التلقيح فى عفة المرأة

ألا وان المرأة التى تستسيغ نطفة الرجل الأجنبى يضعفه عندها الوازع الدينى ، فقد لاترد رجلا يطلبها سفاحا بعد ذلك ، بل قد تسعى اليه سرا ، لأنها أصبحت فى مأمن من انكشاف أمرها بعدما حملت من التلقيح الأجنبى ، وهى بصـــدد أن تحمل منه أو بعدما حملت منه فعلا ، والزوج عالم به وموافق عليه •

انها تقول فى نفسها : أى فارق بين مضاجعـــة الرجـــال الأجانب ونقل نطفهم الى رحمها ، انهما فى الأثر سواء ، فحيث تعاطت الثانى واستساغته ورضى به الزوج ، فانها تتعاطى الأول ، وتراه أشهى ، وتندفع فى حمـــأة الرذيلة وتخلق للزوج المتاعب وتثير حوله الغبار القاتم ، فاذا علم الزوج بما آل اليه أمرها اتهمته بأنه هو الذى فتح لها نافذة الى السفاح برضاه بالتلقيح الصناعى المشئوم ، وحملته تبعة ما انتهت اليه •

فعلى الزوجين اللذين لم ينجبا أن يسلكا مسلكا من ثلاثة :

(أحدها) أن يرضيا بما قسم الله تعالى ، فهو الذى يقول : « يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما •• » الآية فمن رضى بما قسم الله استراح قلبه ، ونفى عن نفسه الحقد على غيره من ذوى الأولاد . وما من أحد يعرف أين يوجد الخير ، فلو اطلع الانســـان على الغيب لاختار الواقع ، وكم من والدين يشقيان بعقوق أولادهما

أو متاعبهم الكثيرة ، وليس فى الدنيا من يجد متعة كاملة ، فأولو الأولاد يشكون ، والمحرومون منهم يئنون ، ونظام الدنيا على ماقسم الله لعباده هو عين الحكمة ، والرضا به هو عين الصواب وأساس الاطمئنان .

(ثانيها) أن يربيا بعض أقاربهما الفقراء — لا على سبيل التبنى — سواء أكانوا وارثين أم غير وارثين ، وقد رأيت بعض الأثرياء الذين حرموا الذرية من ظهورهم صنعوا ذلك ، فأفاضوا برهم وحنانهم على بعض ذوى قرباهم ، وجعلوا منهم رجالا نابهين فى المجتمع ، بما حصلوا عليه من ثقافة رفيعة ، ولولاهم لكانوا خاملين ، ولما رحل هؤلاء المحسنون الى ربهم ، تركوا فى الناس طيب الأحدوثة بما صنعوه فى ذويهم ، ونعموا فى أخراهم بجزاء المحسنين .

(ثالثها) أن يربيا بعض اللقطاء — لا على سبيل التبنى — بل على سبيل الاحسان واتباع الرغبة فى تربية الأطفال وطلبا للسلوى ومرضاة الله تبارك وتعالى .

وأما التبنى فليس مشروعا فى الاسلام ، فقد كان من عادة أهل الجاهلية ، واستمر العمل به فى أول الاسلام حتى أبطله الله تعالى بقوله : « وما جعل أدعياءكم أبنـاءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت

قلوبكم وكان الله غفورا رحيما » (١) وبنزول هذا التشريع بطلت آثار التبنى التى كانت فى الجاهلية من : الانتماء الى الأسرة والميراث منها .

فاذا ربيت واحدا من أقاربك أو من اللقطاء ، فلا يحل لك أن تعطيه أحكام البنوة من الميراث والنسب ، ولكن يجوز لك أن توصى له من مالك بما لا يتجاوز ثلثه ، فان زادت الوصية له وحده أو مع غيره ثلث التركة ، توقف الزائد على اجازة الورثة .

فليختر الزوجان اللذان لم ينجبا مسلكا من هذه المسالك الثلاثة ، ثم ليتركا فى النهاية ثروتهما لمن يرثها من أقاربهما ، بعد أن يقدما من ضروب الاحسان ، ما ينفعهما فى دار الخلود وليطويا جوانحهما على الرضا بقضاء الله وقسمته فهو أحكم الحاكمين .

أطفال الأنابيب

تطورت عملية التلقيح الصناعى فى سنة ١٩٦٩ م الى حد جرىء فقد عمد ثلاثة من علماء الانجليز الى تلقيح بويضة امرأة بحيوان منوى من رجل داخل أنبوبة اختبار وتعهدوا التجربة حتى جاءت فى النهاية بطفل داخل أنبوبة الاختبار ، ثم قتل هؤلاء الأطباء ذلك الجنين ، حتى يتمكنوا من فحص نتائج التجربة فحصا شاملا وكان ذلك كله تحت اشراف جامعة كمبريدج .

---

(١) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة الاحزاب .

والخبر المذكور نقلتـه جريدة أخبـار اليـوم بتاريخ ١٥ / ٢ / ١٩٦٩ عن مجلـة (نيتشر) العلمية وذكرت فيها أن المرحلة التالية ستكون وضع البويضة بعد تلقيحها داخل الرحم حتى يولد الطفل بطريق طبيعى ، كما نقلت عنها أن هذا الكشف سيعيد الأمل لملايين النساء اللاتى يعانين العقم بسبب انسداد قناة فالوب ، ثم قالت جريدة الأخبار بتاريخ ١٦ / ٢ / ١٩٦٩ نقلا عن بحث علمى أن الهـدف من هذه التجـربة هو معرفة الخطوات البالغة التعقيد التى تمر بها عملية الاخصاب ، حتى يعلم المزيد من وظائف الخلايا والأجنـة والصـفات الوراثية ومختلف مراحل تكوين الجنين، وذكرت أن هؤلاء العلمـاء لم ينجحوا الا بعد آلاف العمليـات الكيماوية والطبعية التى باءت بالفشل قبل اهتدائهم الى الطريق الصحيح •

وقالت : ان هـذه التجربة طبقت أولا على الفيران ، ثم طبقت على الانسان ، وان العلماء الـذين قاموا بها كـان على رأسهم الدكتور : (روبرت ادوارد) الذى صرح بأن الهدف من هذه التجـربة لم يكن صنع الأطفال داخل أنابيب ، بقدر ماهو خطوة هامة فى الدراسة الفسيولوجية ، وتحقيق فى نفس الوقت لآمال راودت الكثيرات من النساء •

تلك هى خلاصة ما كتبته الأخبار نقـلا عن تقرير هؤلاء العلمـاء •

رأى الــدين فى ذلك

قبل أن نذكر رأى الدين نسجل هنا أن ما أثبته هؤلاء العلماء بتجاربهم يدل أوضح الدلالة على عظمة الله تعالى وقدرته البالغة فى خلق الانسان ، تلك العظمــة التى لم يدركوا بعض أسرارها الا بعد اخفاقهم فى تجاربهم آلاف المرات ، وصدق الله تعالى اذ يقول : « وفى أنفسكم أفــلا تبصرون » أى أفلا تعتبرون بما انطوت عليه نفوسكم من عظمة الخلق والتكوين المحير للعقول والألباب .

ثم نقول : ان هؤلاء لو كانوا يفعلون ذلك ليتعرفوا مدى قدرة العليم الحيكم فى خلق الانسان ، ويتعلموا من أمور تكوينه ما يســـاعد على عــلاج بعض الأمراض والنقص التكوينى ولا يترتب على عملهم هذا وتعليمه لغيرهم أضرار ، لقلنا : هذا عمل يجوز تبريره ، بحجة أن الغاية الشريفة تبرر الواسطة ، كما بررنا تشريح الموتى لنفع الأحياء ، وكما بررنا انبات أطفالنا للنبات فى القوارير والأطبــاق ، بدل انبــاته فى الأرض لكى يطبقوا العلم على المعلوم ، ولتقديس الخالق جل وعلا .

لكن عملهم هذا اقترن بجريمة ، وســـوف يستتبع آثارا سيئة ، واليك البيان :

أول جريمة لهذا العبث أن هذا الجنين بعد أن تم تكوينه داخل أنبوبة الاختبار قتلوه كما نقلته جريدة أخبار اليوم: وقتل

النفس حـــرام باجماع الديانات ، اذ لا فرق بين جنين انسانى احتضنته رحـــم الأم ، وبين جنين آخـــر احتضنتـــه أنبوبـــة الاختبار ، فكلاهما من نطفة آدمى وبويضة آدمية .

فان كانـــوا قتلوه لأنه لايســـتطيع أن يعيش على غذاء الأطفال لأنه لم ينشـــأ فى الرحـــم ، فماذا أجداهم هذا الجهد المضنى الذى كانت نهايتـــه الاعدام ، وكيف طاوعتهم أنفسهم أن يعدموا انسانا يرونه حيا كالأطفال ــ كما زعموا ــ وبخاصة بعد ما بذلوه من جهود مرهقة على مر السنين .

والجريمة الثانيـــة خلقية ونسبية ، فانهـــم صرحوا بأنهم لم يريدوا بما فعلوا مجـــرد الدراسة ، بل تحقيق أمل الكثيرات المحرومات من الانجاب ، لانسداد قنوات فالوب لديهن ، الأمر الذى يجعل المرأة عاجزة عن انتاج بويضة قابلة للتلقيح بنطفة زوجها ، ولسوف يجلبون لهـــا بويضة من امرأة أخرى ، لتلقح بحيوانات زوجها المنوية خارج رحمها ثم يدفعون بها الى رحمها أو لتلقح داخل رحمها حسب ما تهدى اليه تجاربهم .

فان كان زوجهـــا عقيما ، لقحوا تلك البويضة بحيوانات منوية من سواه ، فالولد الذى تحمل به وتلده بعد اكتمال نموه ــ اذا كان أمره على هذا النحو أو ذاك ــ ليس لهـــا فيه ســـوى الحضانة الرحمية ، فكيف يكون نســـيبا لها يرثها وترثه ، وان مثلها كمثل المرضعة لولد غيرها .

وكيف يكون ولدا شرعيـــا لزوجها والبويضة التى لقحها بمائه من غير زوجته ؟ •

أليس مثله فى هذا كمثل رجـــل زنى بامرأة أجنبية ولقح بويضـــتها بمائه الذى أدخله فى رحمها أثناء الزنى ؟ • ولافرق بينهما الا أن زناه بالأجنبية كان عن طريق زوجته التى أوصلته الى بويضتها المستعارة منها للانجاب ، وهل الطفل المتولد من ذلك يحمل صفات المرأة الحاضنة وزوجها معا ؟ أم صفات صاحبة البويضة وصفات زوج الحاضنة ، والأخير هو الواقع ، فهو كولد الزنى تماما ، فان كان المنى الذى لقحت به البويضـــة فى رحم العقيم من غير زوجها كانت المصيبة أعظم !

وثالث جريمة ســـوف تترتب على هذه التجـــربة ، غرور أولئك العلماء وظنهم أنهم شـــاركوا الخالق — جل وعلا — فى الخلق ، وقدروا على ما قدر عليه من ابداع الانسان الذى انطوى فيه العالم الأكبر ، كمـــا سيترتب عليه غرور من يتعلمون منهم ويمارسون ما يمارسون •

وازاء هذا نقول : ان هؤلاء العلمـــاء لم يأتوا بشىء من عندهم ، فالنطفة والبويضة من خلق الله تعالى ، ولا يستطيع أحد ابداعهما ، والسوائل التى أحاطوا الجنين بها فى أنبوبة الاختبار والجو الذى هيئوه له أثناء الحضانة فيها ، كل ذلك من خلق الله ومستنبط من نظام الله فى تكوين الجنين ، والعلماء الذين قاموا

بالتجربة ، وعقولهم التى اهتدوا بهــا فى أثنائها من خلق الله والطريقة التى سلكوها من ارشـــــاد الله ، وفوق كل ذى علم عليم ، وما خفى من خلق الانسان وشئونه أعظم مما ظهر منها وصدق الله تعالى اذ يقول : « أم خلقوا من غــير شىء أم هم الخالقون » •

وقد نشرت صحيفة الأخبار عند ظهور هذه البدعة : أن مسئولا بالفاتيكان ، صرح : بأن هذه العمليات غير أخلاقية وغير مشروعة ، وقد أحسن بهذا التصريح ، حتى لايندفع المسيحيون والمسيحيات فى الرضا عن هذه الجريمة والأخذ بها •

أما اخواننا المسلمون وأخواتنا المسلمات : فاننا نربأ بهم عن أن يفكروا فى تحبيذها والأخذ بهــا ، فهى جريمة بشعة فى مبدئها وفى آثارها المرتقبــة ، والاســـلام يشجبها ويستنكرها وهم على دينهم حريصون ، وعلى درب الحق سائرون ، والله الهادى الى سواء السبيل •

أول جريمة انسانيــة على الأرض

بعــد أن هبط آدم وحواء من الجنــة الى الأرض باشرا أمرين :

أحدهما : اعداد معاشهما ومباشرة أسبابه •

وثانيهما : انجاب الأولاد حسب المرحلة الثانية التى مر بيانها ، ثم تزويج ذكورهم من اناثهم عنــدما يصلون الى سن

الزواج ، حتى يكثر أولاده من حوله ، ويصبحوا خلفاء على الأرض بعده ، وينتشروا فى شتى أقطارها •

ويشير الى ذلك قوله تعالى فى أول سورة النساء : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » •

أخرج ابن جرير الطبرى عن ابن مسعود وناس من الصحابة — رضى الله عنهم — : أنه كان لا يولد لآدم مولودا الا ومعه جارية ، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر ، جعل افتراق البطون بمنزلة افتراق النسب للضرورة اذ ذاك ، حتى ولد له ابنان يقال لهما : (هابيل وقابيل) ، وكان قابيل صاحب زرع وهابيل صاحب ضرع ، وكان قابيل أكبرهما ، وكانت له أخت واسمها : (اقليما) أحسن من أخت هابيل (١) ، فطلب هابيل أن ينكح أخت قابيل ، فأبى عليه ، وقال : هى أختى ولدت معى وهى أحسن من أختك ، وأنا أحق أن أتزوج بها ، فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبى ، فقال لهما : قربا قربانا ، فأيكما قبل قربانه تزوجها ، — وانما قال ذلك لعلمه أنه لايقبل من قابيل لأن ذلك غير مشروع ، والله لايقبل ما يخالف شرعه ، ولا ما يؤدى اليه — فقرب هابيل جذعة — وقيل كبشا — وقرب قابيل حزمة

(١) وكان اسمها « ليوذا » كما ذكره القرطبى .

سنبل ، فوجد فيها سنبلة عظيمة ، ففركها وأكلها ، فنزلت النار فأكلت قربان هابيـــل ، وكان ذلك علامة القبول ، وتركت قربان قابيل فغضب وقال : لأقتلنك ، فأجاب بقوله : (انما يتقبل الله من المتقين) الخ • ذكــر ذلك الآلوسى •

كما ذكر عن الحسن : أنهما من بنى اسرائيل ، وهذا خطأ فان فى قصتهما أن القاتل لم يعرف كيف يوارى ســوأة أخيه القتيل ، حتى بعث الله غرابا فعلمه — كما سيأتى بيانه ، ومعلوم بداهة أن دفن القتيل كان أمرا معروفا لدى بنى اسرائيل ومن كان قبلهم •

فالصواب : ما ذهب اليه الجمهور : من أنهما كانا ولدين لآدم عليه السلام ، ويؤيده حديث « لاتقتل نفس ظلما الا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سن القتل » أخرجه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود وسيأتى ذكره •

ونقل صاحب المنــار عن سفر التكوين : أنهما ابنــا آدم مباشرة ، وأن اســم أحدهما : قاين أو قايين — وهو البكر — (ويسميه علماء التفسير والتاريخ المسلمون قابيل) وهو القاتل واسم الثانى ، هابيل اتفاقا •

وبعد ذكر ما تقدم نقول : ان المؤكــد مما ذكر أنهما ولدا آدم ، وأنهما قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر فهذا هو الثابت فى القرآن الكريم ، الموصوف فيه بأنه الحق ،

(٩)

قال تعالى : « واتل عليهم نبــأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » •

أما ما قيــل وراء ذلك من أسماء الأولاد ، ونوع القربان والغرض الذى قدم من أجله ، فــلا نصدقه لانه ليس عنــدنا ما يثبته ، ولا نكذبه لأنه لم يرد فى شريعتنا ما يرده ، ولهذا نكل العلم بحقيقته الى الله تعالى ، وهذا ما أوصانابه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم •

(القربان)

القربان : ما يتقرب به الى اللــه تعالى ، وغلب فى شريعة الاسلام على ذبائح النسك والأضاحى •

ولا سبيل لنا الى معرفــة قربان ولدى آدم على التعيين فقد يكون ما ذكرناه أولا نقــلا عن ابن جرير الطبرى ، وقــد يكون غيره •

قال صاحب المنار على سبيل الاستطراد : كانت القرابين عنــد اليهود أنواعا ، منها المحرقات للتكفير عن الخطايا : وهى ذكور البقر والغنم السالمة من العيوب ــ سواء أكانت الخطايا عامة أم خاصة ــ ومنها : ذبائح الســلامة لشكر الرب تعالى : ومنها : التقدمات من الدقيق والزيت واللبن ، ومنها : تقدمــة الترديــد من باكورة الأرض •

وأما القربان عند النصارى : فهو ما يقدمه الكاهن من الخبز

والخمر ، فيتحول فى اعتقادهم الى لحم المسيح ودمه ، حقيقة لا مجازا .

هـــذا ما ذكره صاحب المنار استطرادا ، جئنا به ليعرف القارىء عادات أصحاب الأديان ، وما وصل اليه الفكر الدينى عنـــد بعضهم ، حتى زعم أن القربان يتحول الى لحم ودم ، لمن يزعمونه ابنا لله . تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

كيف قبل قربان ورفض آخر ؟

قال تعالى : « فتقبل من أحدهما ولم يتقبـــل من الآخر » أى فتقبل الله القربان من أحدهما ، لتقواه واخلاصه وطيب نفسه به ، ولم يتقبل من الآخر ، لأنه كان على عكس ذلك النمط من الأخلاق .

وتقبل القربان : كنـــاية عن رضا الله به والمثوبة عليه ، ولم يبين القرآن الكريم ، كيف علما أن الله تقبـــل من أحدهما دون الآخر ، قال صاحب المنار : يحتمل أن يكون ذلك بوحى من الله لأبيهما آدم .

وروى : أن القربان المقبول كـــانت تجىء النـــار فتأكله ولا تأكل غير المقبول ، ولكن مصدر هذا اسرائيلى ، وليس لدينا مايؤيده أو ينقضه بالنسبة لموضوع ولدى آدم ، والله تعالى أعلـــم .

التهديد بالقتل

يحكى الله تعالى المناقشة التى جرت بين من رفض قربانه من ولد آدم ، ومن قبـل قربانه منهما فيقول : « قال لأقتلنك قال انما يتقبـل الله من المتقين » أى : قال مـن رفض قربانه لأخيه التقى الذى قبل قربانه سـأقتلك ، وأكد وعيده بالقسم المؤكد بالنون ، فأجابه التقى بما من شأنه أن يصرفه عن نية السوء الى تقوى الله ، اذ قال له : ما يتقبل الله القربان الا من الذين يتقونه من عباده .

ويتضمن هـذا الجواب المختصر : سبب قبـول القربان وسبب رفضه ، مع الدفاع عن النفس والاعتذار للأخ ، فكأنه يقول : أنا لم أرتكب نحوك ذنبا تقتلنى به ، وليس الذنب ذنبى فى عـدم تقبل الله قربانك ، فان قاعدة قبول الله للقربان : أن يتقدم به صاحبه وهو يتقى الله ، بأن يكون مطيعا له مخلصا فى التقرب به اليه ، وكذلك فعلت أنا ، ولو أنك قدمت قربانك وأنت تقى سخى النفس حسن الاختيار ، لتقبل الله قربانك ، فأنت حرمت القبول من تلقاء نفسك ، وبسوء قصدك وانصرافك عن تقوى الله ، فالذنب ذنبـك وليس ذنبى ، فلمـاذا تعزم على قتلى ؟ .

والمقصود من التقوى التى يتقبل الله من صاحبها : اتقاء الشرك الأكبر ــ وهو الشرك بالله ــ والشرك الأصغر ــ وهو

الرياء — مع طاعة الله ، وطرح الشح وحسن الاختيار ، فالله تعالى طيب ، فلا يقبل الا طيبا ، قال تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (٣ — ٩٢) •

فليتعظ بهذا أهل الرياء فى مبراتهم ، اذ يبتغون بها الشهرة وحسن السمعة ، ولايريدون بها وجه الله تعالى •

وقد جاء فى شريعة الاسلام : أن الله تعالى ظهير لأوليائه خصيم لأعدائهم ، وأخرج البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله تبارك وتعالى قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضته عليه ، ومايزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وان سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » الخ •

وحرب الله لأعداء أوليائه ، اما بكفهم عنهم ، واما بانتقامه منهم فى الدنيا أو الآخرة أو فيهما كلتيهما •

والمقصود من كون الله سمعا وبصرا ويدا ورجلا لأوليائه : أن يكون الله فى عون عبده فى أمره كله ، أو أن تكون هذه الأدوات من العبد موفقة لطاعة الله تعالى •

حكم ترك الدفاع عن النفس

يحكى الله عن الأخ التقى : أنه قال لأخيه الذى هددمبالقتل « لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك انى أخاف الله رب العالمين » •

فأنت ترى من ظاهر هذا النص ، أن الأخ التقى أكد لأخيه الظالم ، أنه ان مد يده اليه ليقتله ، فانه لن يفعل به مثل ذلك وعلل ما قاله : بأنه يخاف الله رب العالمين •

فهل يعاقب الله من يدافع عن نفسه ، ولهذا خاف أن يفعل ما يغضب الله تعالى ؟ •

وقــد أجيب عن ذلك : بأن شريعتهم وقتئذ لم تــكن تجيز الدفاع عن النفس ، وروى ذلك عن مجــاهد •

وكانت شريعة بنى اسرائيل على هذا النمط أيضا ، أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : كانت بنو اسرائيل قد كتب عليهم اذا بسط الرجل يده الى الرجل ، لايمتنع منه حتى يقتله أو يدعه، وقيل : أن ذلك كانتحريا لما هو أفضلوأكثر صوابا ، وهو أنيكون مقتولا لا قاتلا بالدفع عن نفسه أى : أن عدم الدفاع عن النفس لم يكن واجبا عندهم ، بل كان أفضل من الدفاع ، لكنه لو دافع عن نفسه حتى قتل غريمه فانه لا يكون آثما ، بل تاركا للأفضل •

والمتأمل فى تلك الأخبار ، لا يراها مدعاة للطمأنينة ، فهى

غير مرفوعة الى الرسول المعصوم ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولهذا كانت متضاربة •

والصواب : أن الآية ليس فيها أن التقى لم يدافع عن نفسه، بل فيها أنه لا يقدم على قتل أخيه ، كما يريد أخوه أن يفعل به•

فالمعنى : لئن مددت الى يدك لتقتلنى تنفيذا لوعيدك فاننى لا أتصف ببسط يدى اليك لأقتلك ، فان ذلك ليس من صفاتى وشمائلى ، لأنى أخاف الله رب العالمين أن تنطوى نيتى على قتلك دفاعا عن نفسى ، ولكنى حين أدفعك عن نفسى ، أحرص على حياتك ولا أبغى قتلك •

وقد جاء فى شرعنا قوله صلى الله عليه وسلم : « اذا التقى المؤمنان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه ، فالقاتل والمقتول فى النار ، قيل : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه » • أخرجه أحمد والشيخان وغيرهم •

فهذا الحديث صريح فى أن حرص المسلم على قتل أخيه ولو دفاعا عن نفسه معاقب عليه ، أما حرصه على وقاية نفسه منه ، اذ ظلمه وصال عليه ، فذلك حق له • وأوجبه بعض العلماء دفعا لأهل الشر والفساد ، ولو أدى الدفاع عن النفس الى قتلهم اضطرارا ، وهو الراجح عند المالكية ، قال الجصاص: يلزم الرجل دفع الفساد عن نفسه وغيره ، وان أدى الى القتل • أ هـ فالمنهى عنه هو الاصرار على القتل ، لا حصوله اضطرارا •

نقول : ويؤيد هذا قوله تعالى : « فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله » وهذا الرأى يدور على ماقاله ابن عباس فى تفسير الآية،اذ قال لئن بسطت الى يدكعلى سبيل الظلموالابتداء لتقتلنى ، ما أنا بباسط يدى اليك على وجه الظلم والابتداء . أهـ .

ومفهوم هذا الكلام : أنك اذا بسطت يدك الى غيرك لا على وجه الظلم والابتداء ، بل على وجه الدفاع ورد الظلم ، فلست مؤاخذا ، ولو أدى الأمر اضطرارا الى قتل من صال عليك .

ثم علل ابن آدم امتناعه عن بسط يـده الى أخيـه لقتله بقوله : « انى أريد أن تبوء باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظلمين » أى : انى أريـد بامتناعى عن ارادة قتلك وعن بسط يدى لا غتيالك ، أن ترجـع باثم قتلك لى ان قتلتنى وأنا على نية مسالمتك ، وباثمك الخاص بك الذى كان من شؤمه عـدم قبول قربانك ، فتكون بارتكاب الاثمين من أصحاب النار الملازمين لها ، وذلك جزاء المتمادين فى الظلم .

وقيل فى معنى الآية :انى أريد أن ترجع باثمى الذى عملته أنا فى حياتى ، وباثمك أنت بسبب قتلى .

وهذا التفسير مبنى على القول بأن القاتل ان لم تكن لـه حسـنات أخذ من سيئات المقتول وأضيفت الى سيئاته ، فان كانت له حسنات أضيف جزء منها أو كلها الى حسنات المقتول .

تنفيذ الوعيد

لما كان تفكير المرء فى قتل أخيه ، يقابله ما جبل عليه البشر من صوارف القرابة والقلب والعقل وفظاعة الجريمة ، فلذا يكون الاقدام عليها حاصلا بعد صراعات عنيفة بين هـذه الصوارف وبين شهوة النفس ونزوعها الى الجريمة ، وانتهاء تلك المدافعات الى تغلب نزعة الشر ، وتسهيل النفس وتشجيعها الجوارح على الاقدام عليها ، فلهذا قال الله تعالى يصف ما حـدث من الأخ الشقى لأخيه التقى : « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين » • فالتعبير بتطويـع النفس يشير الى هـذه الصراعات وانتهائها الى تسهيل النفس أمر الجريمة مع بشاعتها ووجود الصوارف عنها ، أى : فسهلت له نفسـه وجرأته على جريمة قتل أخيه مع فظاعتها ووجود ما يصرف عنها فقتله ، وذلك لايفعله الا نفس حقـود ، أمارة بالسـوء ، لا تخشى الله ولا ترعوى عن الشر بمـا ذكرت به من سـوء المصير ، فأصبـح باستسلامه وطاعته لها ، من الخاسرين فى الدنيا والآخرة •

وبهذا الاثم حدثت أول جريمة قتل فى الجنس البشرى على الأرض ،اجترأ عليها أخ ضد أخيه بسبب الحقـد والحسـد فكانت أسوة سيئة فى البشر ، ولذا حمل الله فاعلها نصيبا من كل جريمة مماثلة ، باعتباره أول من سن القتـل فى مجتمع نظيف من الجرائم ، أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود رضى الله

عنه قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « لا تقتل نفس ظلما الا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سن القتل » .

كيف عرف القتل ؟

يقول بعض المفسرين : ان ابن آدم الشرير كان يجهل كيفية قتله لأخيه ، فجاء ابليس بطائر أو حيوان غيره فجعل يشدخ رأسه بين حجرين ، ليقتدى به قابيل فى قتله أخاه هابيل ففعل ، ويعزى هذا القول الى ابن جريج ومجاهد وغيرهما .

وروى عن ابن عباس وابن مسعود أنه وجد أخاه وحده فشدخ رأسه بحجر .

والذى ينبغى أن يقال : ان للانسان غرائز تدفعه الى آثارها ولا تحوجه الى أن يتعلم من غيره ، وقتل الغريم أمر جبلى لا يحتاج الى تعليم ، فضلا عن أن ابن آدم ربما شاهد قتل بعض الحيوان لبعض ، أو ربما كان ذبح الحيوان ليؤكل مشروعا لديهم فعرف القتل من هذا الطريق أو ذاك ، ولهذا لم يحك القرآن أنه كان بحاجة الى معرفة كيفية القتل ، كما حكى احتياجه الى معرفة كيف يوارى سوأة أخيه .

كيف عرف الـــدفن ؟

لم يكن للقاتل علم بدفن الموتى ، فانه حتى هذه اللحظة لم يمت من بنى آدم أحد فيدفن ، حتى يعرف ذلك فيصنعه مع أخيه فلذلك أرشـــده الله الى طريقة مواراته ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه » الآية •

كان منظر أخيه قتيلا أمامه يسوءه ، فقد كان منذ قريب حيا متحركا ، يؤويهما منزل واحـــد ، ويحنو عليهما ويرعاهما الوالدان ، فلما قتله حرم منه والديه ، وحرمه من الحياة وآثارها وأصبح رمة تتقزز منها النفس ، فلذلك كان مستاء من رؤيته له ولكنه لايدرى كيف يتصرف ، فلهذا بعث الله له غرابا يبحث فى الأرض ويحفر فيهـــا ليخفى طعامه الى وقت الحاجة ، فان ذلك من عادته ، فتنبه القاتل ، وعرف من حـــال الغراب كيف يوارى سوأة أخيه •

وروى عن مجاهد : « أن الله بعث غرابين فاقتتلا ، حتى قتل أحدهما صاحبه ، ثم حفر فدفنه : اهـ » • ولكن ذلك مخالف لظاهر النص الذى يدل صراحة على أنه تعالى بعث غرابا واحدا لاغرابين ، فالظاهر هو ما قلناه أولا •

وقد دلت هذه القصة على أن الله تعالى أعطى الحيوان من الغرائز مالايحتاج معه الى تقليد غيره فيه ، أما الانســـان

فقد أعطاه الله نعمة الانتفاع بما يراه ، واستنباط الفوائد والأحكام ، فيقيس مالا يعلم على ما علم ، وبذلك فاق الحيوان في حين أن الحيوان فاقه في بعض الغرائز ، فاستفاد بها الانسان في بعض أغراضه .

ولما رأى ابن آدم ما صنع الغراب ، قال : « يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين » . يقول ابن آدم تحسرا وندما على ما وصل اليه من الغباء والعجز : أيتها الويلة والهلكة : أقبلى الى فأنا أستحقك فقد بلغ من عجزى وغبائى أن كنت دون هذا الغراب تصرفا وادراكا ، فلم أستطع أن أوارى جثة أخى التى ساءتنى ، فأصبح لذلك من النادمين ، اذ أحرج نفسه هذا الحرج ، وظل حائرا فى أمر أخيه مدة — يعلمها الله — سببت له مساءة ، حتى دعا على نفسه بالويل ، لأنه لم يتفطن الى التخلص من هذا الكبت بدفن أخيه عقب قتله اياه ، وظل حائرا فى أمره حتى رأى الغراب وقلده .

ولم يكن ندمه من أجل أنه قتل نفسا حرم الله قتلها دون سبب مشروع ، بل من أجل أنه عجز عن أن يكون مثل هذا الغراب فى فهم الأمور ، حتى يدفن أخاه عقب قتله ، فلا يتألم طويلا برؤية سوأته أمامه .

أما قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الندم توبة »

فمحمول على الندم من أجل ارتكاب المعصية ، وأن يكون ذلك رجوعا منه الى الله تعالى ، وهو لم يفعل ذلك ، قال ابن عباس : لو كانت ندامته على قتله ، لكانت الندامة توبة .

تتمة

أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير عن عطية قال : « لما قتله ندم ، فضمه اليه حتى أروح ، وعطفت عليه الطير والسباع تنتظر متى يرمى به فتأكله ، وتحاش أن يأتى به آدم — عليه السلام — فيحزنه ، وتحير فى أمره اذ كان أول ميت من بنى آدم عليه السلام ، فبعث الله تعالى غرابين قتل أحدهما الآخر وهو ينظر اليه ، ثم حفر له بمنقاره وبرجله حتى مكن له ، ثم دفعه برأسه حتى ألقاه فى الحفرة ، ثم حثا عليه برجله حتى واراه » وقيل : ان أحد الغرابين كان ميتا .

الى غير ذلك من الروايات المتضاربة ، وحسب القارىء : ما قصه الله فى كتابه من قصتهما ، فانه هو الحق كما قال تعالى : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق » فالله تعالى يشير بقوله : « بالحق » الى ما حف بتلك القصة من الاسرائيليات التى لايعول عليها .

البعث بعد الموت

كل عاقل آمن بخالق الكون ورازقه وكافله ، يؤمن وجدانيا وبنظرة يسيرة بأنه تعالى سوف يبعث الناس بعد الموت ، فانه يرى الحياة الدنيا خليطا يمتزج فيه الشر بالخير ، والاساءة بالاحسان ، والشقاء بالسعادة ، والحزن بالفرح ، والظلم بالعدل ، ويرى كثيرا ممن أسيء اليهم ماتوا دون أن يقتص لهم ، وكثيرا ممن أساءوا أفلتوا من العقوبة طول حياتهم وأصنافا ممن تقلبوا فى الفقر والحرمان ، لم يذوقوا طعم الغنى والتمتع بلذائذ الحياة ، الى غير ذلك من الفوارق الاجتماعية الصارخة ، وألوان المظالم البشرية الطاغية ، التى تجعل المتأمل الفطن يجزم بأن خالق هذا الكون العظيم ، لم يجعل دنيانا هذه مبدأ وغاية ، ودار تكليف وجزاء ، بل جعلها مبدأ لغاية تتلوها ودار تكليف تسبق دار جزاء بعدها .

وعندئذ : يسوى الحساب وتقام المعادلات ، ويجزى المحسن باحسانه فيتذوق نعيما لا حرمان فيه ، وعدلا لا ظلم فيه ، وفرحا لا يشوبه حزن ، وسعادة لا يمسها شقاء .

ويجزى المسيء باساءته ، فيحصد الشوك الذى زرعه ، ويشرب العلقم الذى أعده .

هكذا يكون ادراك العاقل لهذه الحياة وما بعدها ، وثقته بالخالق الحكيم ، مصدر الكمال والخير ، والقوام على كل نفس

بما كسبت ، وكما يدرك ذلك بفطرته وفطنته ، يدركه مما قرأه من أنباء المرسلين ، وبتحققه مما جاء به القرآن الكريم ، فكل الرسالات مجمعة على البعث والحساب والجزاء .

اليقظة بعد النوم بعث

ومن رحمة الله تعالى بعباده ، أنه يذكرهم كل صباح بالبعث بعد الموت ، فهو آية يبدأ الله بها عباده كل يوم قبل مباشرتهم أعمالهم ، ليذكرهم بالصحوة الكبرى بعد الموت وما يتلوها من الحساب والجزاء ، حتى يتصرفوا بعقل وحكمة ولا ينزلقوا فيما يكبهم فى النار على وجوههم .

فاستمع الى القرآن الكريم اذ يقول فى سورة الأنعام : « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم اليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ٦٠ » .

فأنت تراه قد سمى الانامة بالليل توفيا ، كما سمى الاماتة به فى نحو قوله : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » لمزيد الشبه بينهما ، فان الأرواح تقبض عن التصرف عند النوم ، كما تقبض عنه عند الموت .

وتراه قد سمى الايقاظ فى النهار بعثا ، كما سمى به الاحياء بعد الموت فى نحو قوله تعالى : « وأن الله يبعث من فى القبور » لما بينهما من الشبه القوى ، فان الأرواح بعد الايقاظ تبعث

الأجســـاد الى الحركة والتصرف ، كما تدفعها بعد البعث الى النشور والانصراف الى ساحة الحساب •

ونظرا لمزيد الشبه بينهما ختم الله الآية بقوله : « ثم اليه مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون » أى ثم اليـــه رجوعكم بعد الموت فيحاسبكم ويخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا ، ويجزيكم بالاحسان احسانا ، وبالسوء سوءا •

والآية الكريمة تشير الى أن النشأة الثانية ، منزلتها بعد الموت ، كمنزلة اليقظة بعد النوم ، فمن قدر على احداهما فهو قادر على الأخرى ، وهذا هو دليل الامكان •

أما دليل الوقوع فهو النصوص الواردة فى القرآن والسنة بالاضافة الى الدليل العقلى الذى صدرنا به موضـــوع البعث بعد الموت •

فمن أدلة القرآن قوله تعالى : « ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون » ومن أدلة السنة : قوله صلى الله عليه وسلم : « والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ولتجزون بالاحسان احســـانا وبالسوء سوءا ، وانها لنار إبدا أو لجنة أبدا » •

أما الدليل العقلى على أن البعث بعد الموت ســـيقع حتما فخلاصته : أن خالق هذا الكون حكيم ، ولايعقل أن يكون قد جعل الدنيا مبدأ وجزاء ، لما نراه فيها من حرمان للمحسنين ، ومتاع

المسيئين ، وضياع للحقوق وشيوع للمظالم ، وغير ذلك مما يشير الى أن هذا الخالق الحكيم ، لم يجعل دنيانا هذه دار جزاء ، وأن حياتنا فيها ليست الحياة الوحيدة ، فلابد عقلا : أن هذا الخالق الحكيم ، قد أعد دارا آخـرى ، يعطى فيها لكل ذى حق حقه فيحسن فيها للمحسنين ، ويعاقب المسيئين •

صور من البعث فى الدنيا

١ — أحياء الطيور الأربعة

كان الوثنيون فى عهد ابراهيم — عليه السلام — لايؤمنون بالحياة بعد الموت ، فطلب من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ليكون قلبه مطمئنا ثابتـا وهو يجادل الوثنيين ويقنعهم ، فان الاخبار عن معاينة يجعل الحديث أقوى منه بدونها ، ويـكون أشد تأثيرا فى الخصم ، فأمره الله تعـالى أن يأخذ أربعـة من مختلف أنواع الطير ، وأن يضمهن اليه ليتأمل ما يميز كل واحدة منهن عن الأخرى ، وأن يذبحها ويفرق أجزاءها على جبـال أربعة ، فيجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم يدعوهن بأن ينادى كل واحدة منهن باسمها ، فاذا فعل حضرن اليه كاملات الأجزاء ساعيات مسرعات باذن الله تعالى واحيائه لهن ، ففعل ابراهيم ما أمره به ربه ، فجاءته الطير مسرعات بذواتها وصورها وحركاتها بعد أن منحهن الله الحياة ، وبعثهن من الموت بقدرته •

ولعل ابراهيم — عليه السلام — فعل ذلك أمام الملك الذى

حاجه فى ربه ، وقال له : ربى الذى يحيى ويميت ، وقدم له بهذا البعث البرهان العملى على ذلك ، كما فعل مع قومه ، حين شاركهم ظاهرا فى تأليه الكواكب ، حيث قال فى كل من الكوكب والقمر والشمس : هذا ربى (١) ، ثم استدل على فساد ألوهية كل بأفوله وغيابه ، وقال لقومه : (انى برىء مما تشركون • انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ••) الآيات • وقد شرحنا قصـــة ابراهيم ــ عليه السلام ــ بشـــأن هذه الطيور الأربعة ، شرحا مستفيضـــا فى كتابنا : (أضواء على بعض أخبار الأنبياء) •

٢ ــ البعث بعد الموت مائة عام

يقول الله تعالى فى سورة البقرة : « أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتهـا فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يـــوم قال بـــل لبثت مائة عام فانظـــر الى طعامك وشرابك لم يتسنه •• » الآية ٢٥٩

وقد أفادت هذه الآية الكريمة : أن رجلا مر بقرية أصابها قدر من أقدار الله ــ كالزلزال مثلا ــ فسقطت بسببه على عروشها ، فمات أهلها تحت الأنقاض ، فقال هذا الرجل فى نفسه

---

(١) يزيد : هذا ربى على زعمكم •

أو بلسانه متعجبا : كيف يحيى الله أهل هذه القرية بعد موتهم وتحولهم الى رمم ثم الى عظام نخرة ؟ •

ونظرا لأن القرآن لم يذكر اسم هذا الرجل ، فلهذا اختلف فيه المفسرون والمؤرخون ، فمن قائل : انه عزير بن شرخيا ومن قائل : انه أرميا بن خلقيا من سبط هرون عليه السلام ، ومن قائل : غير ذلك •

كما اختلفوا أيضا فى تعيين القرية ، فقيل : هى قرية الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت بالطاعون ، فأماتهم الله ثم أحياهم ، وقيل قرية : دير هرقل • وقيل : بيت المقدس وقيل : غير ذلك •

وانما أغفل الله تسمية الرجل والقرية ، لأنه لا يتعلق بهما غرض ، وانما يتعلق بحوادث القصة نفسها ، وقد جعلها الله شاهدا يدل على أن الله يبعث من فى القبور •

وخلاصتها : أن هذا الرجل حين مر بتلك القرية ، وقد ازدحمت بالموتى الهالكين ! قال متعجبا : كيف يحيى الله أهل هذه القرية بعد أن ماتوا وصاروا الى ماهم فيه ؟ فشاء الله أن يريه من حاله ما فيه الاجابة على سؤاله هذا ، فأماته مائة عام •

وظاهر النص الكريم : أن الله أماته فعلا ، بأن أخرج روحه ، وبقى ميتا مائة سنة ، وأن جسده لم تسلط عليه عوامل الفساد ، فبقى طريا ، ويحتمل أن هذه الاماتة كانت انامة ، كالتى حدثت لأهل الكهف ، وأن الروح كانت فيه كما كانت فيهم ، وأن

الله كان يقلبه ذات اليمين وذات الشمال كما كان يقلبهم ، وأن اللهتعالى منعه عن التصرف ولم يمكنه من التعقل والتدبر ، كما يفعل بالنائم ، وكما صنع بأهل الكهف •

قال صاحب المنار : قد ثبت فى هذا الزمان ، أن من الناس من تحفظ حياته زمنا طويلا يكون فيــه فاقد الحس والشعور ويعبرون عن ذلك بالسبات ، وهو : النوم المستغرق الذى سماه الله وفاة ، وقد كتب الى مجلة المقتطف سائل يقول : انه قرأ فى بعض التقاويم أن امرأة نامت ٥٥٠٠ يوما بلياليها ، من غير ان تستيقظ ساعة خلال هذه المدة ، أى أكثر من ١٥ ســنة ، وذكر أصحاب المجلة : أنهم قرأوا أن بعض الناس ناموا الى أربعة أشهر ونصف ، ولم يصل الى علمهم ما ذكره السائل •

ولا شك أن الله تعالى اذا كان يحفظ الجسد نائما أربعة أشهر ونصف شهر ، أو خمس عشرة ســنة فانه لا يستبعد أن يحفظه مائة سنة ! انتهى باختصار •

ونحن نقول : ان النص القرآنى ليس بحاجة الى شواهد وان الله على كل شىء قدير ، فمن قدر على خلق الجسد وترتيب عوامل الصلاح له وفيه الحياة ، يقدر على حفظه بعد النوم أو الموت بمنع أسباب الفساد عنه ، ألا ترى المومياوات الفرعونية التى اســتطاعوا أن يبقوها بالتحنيط آلاف السنين الى اليوم لينة الجسد ، فاذا كان الانسان قد استطاع أن يستنبط من مواد التحنيط ما يحفظ به الجسد من التلف ، فكيف يستبعد على الله

أن يحفظ الأجساد بما هو أقوى من التحنيط ، وأكثر ابقاء على خصائصها .

ولنضرب لك مثلا من أعاجيب قدرة الله : ألست ترى الغذاء للطفل يمنحه زيادة فى وزنه وطوله الى سن معينة ، فاذا وصل الى هذه السن توقف طول الشاب عن الزيادة ، وبقى على قدر معين من الطول لا يتجاوزه بقية حياته ، فالذى أوقف تأثير الغذاء على طول الانسان فى سن معينة ، يستطيع أن يمنع أسباب الفساد عن جسد الميت والنائم ، ويمنحه أسبابا غير مرئية تعين على بقائه طريا حسبما يراه الله سبحانه ! .

بعد هذا نعود الى قصة هذا الرجل فنقول : ان الله تعالى منحه الحياة بعد أن لبث ميتا هذه المدة الطويلة ، فلما بعثه من موتته قال له : كم لبثت فى رقدتك هذه ؟ قال : لبثت يوما أو بعض يوم ، لأنه رأى طعامه أمامه كما كان ، وحال جسده لم يتغير فيه شىء ، وثيابه كذلك ، ولو رأى غير ذلك لم يقل لبثت يوما أو بعض يوم ، بل كان يقول فى جوابه ما يناسب حاله .

ولعل المساءلة بين الله وبين هذا الرجل ، كانت منقولة اليه بواسطة نبى أو ملك ، والله تعالى أعلم .

ولما كان تقدير الرجل للزمان الذى بقى فيه ميتا خطأ فلذا صححه الله له بقوله : « بل لبثت مائة عام » ، ولا بد أنه حين سمع ذلك اتجه ببصره حوله ، فوجد أحوال القرية التى

رآها خاوية على عروشها قــد تغيرت ، فقد نشأت فيها الأبنية وتغير فيها الناس ، ونبتت الأشجار ، وتبدلت المعالم !

ولابد أن موته كان فى مغارة ، اختفى فيها مع حماره وطعامه تلك المدة ، وأن الله تعالى حفظه فيهــا بعنايته ، كما حفظ أهل الكهف فى كهفهم وهو مفتوح ، وصرف عنهم الناس مدة نومهم وسيأتى الحديث عنهــم عقب هذا ، وبعــد أن أخبره الله بأنه لبث ميتا مائة عام ، وجــه نظــره الى طعامه وشرابه ، فقال : « وانظر الى طعامك وشرابك لم يتســنه » أى لم يفسد بمرور السنين عليه ، مع أن الطعام لابد أن يتعرض للفســاد عن قرب أو عن بعد حسب نوعه ! .

ثم لفت نظره الى آية عظمى أراه فيها كيف يحيى الله الموتى ، فقال : « وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما » .

أى وانظر الى حمارك كيف مات وتفرقت أجزاؤه ونخرت عظامه ، وأنت لاتزال ذا جسد طرى ، ولكى نجعلك آية للناس وعلامة على قدرة الله على البعث فعلنــا ذلك ، فانهــم حينما يشــاهدون أمرك أو يعلمونه يؤمنــون بالبعث ، فقد بعثك الله بعد أن أماتك مائة سنة ، وبقيت ذا جسد طرى هذه المدة ، وقد تركت أولادا لك قبل الموت ، وعدت اليهم بعد البعث على مامت عليــه من الشباب ، فى حين أن أولادك وأحفادك شيوخ وكهول حطمهم الهرم ، وقد عرفوك بأمارات دلت عليك ، كأخبار رويتها

لهم عن ماضيك ، وعن دارك وزرعك ومالك ووقت خروجك الذى لم تعد بعده ، ولابد أنهم سجلوه وتوارثوه ، كما عرفوك بعلامات كانوا يعرفونها فيك ، وحوادث هامة رويتها عن قريتك وأبنائها فى عهدك ، فكان أمرك لهذا آية للناس ، على أن اللـــه يبعث من فى القبور !! •

ثم وجـــه نظره الى بعث الحيوان : « وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما » أى انظر الى عظـــام حمارك كيف نرفع بعضها على بعض ، ونضمه اليه حسبما كان قبل أن يموت ثم نكسو تلك العظام لحما بعد أن منحناها أسباب استقبال الحياة من جديد ، ثم يعود الحمار بعد ذلك كما كان جسمه ولونه وصوته ، وصلاحيته للركوب وحمل الأثقال ، وكـــل ذلك يتم أمام عينيك ، وهكذا الشأن فى بعث أهل هذه القرية ، وبعث غيرهم يوم القيامة ، « كما بدأنا أول خلق نعيده » •

ثم أكمل الله قصة هذا الذى بعثه الله بعد موته فقال : « فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير » • أى فلما اتضح له احياؤه واحياء حماره بعد الموت قال : أعلم بذلك أن الله على كل شىء قدير ، وفى جملة ذلك احياء موتى هذه القرية وغيرها !!

ويجوز أن يكون صاحب هذه القصة مؤمنا بالبعث ، وأن قوله سابقا : « أنى يحيى هذه الله بعد موتها » يبغى به أن يعرف كيفية احيائها مع التعجب من قدرة الله على ذلك ، فكأنه قال : كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتهـــا ؟ لعلي أعرف ذلك

الأمر العجيب ، ولذلك قال فى آخر كلامه : « أعلم أن الله على كل شىء قدير » •

أى : أننى أعلم بقدرة الله على كل شىء ، وفى جملة ذلك : قدرته على احياء الموتى ، ولكنى وودت أن أعرف كيف يحييهم •

٣ ـ بعث أصحاب الكهف والرقيم

مقـــدمة

كل مافى الكون ـ صـــغيره وكبيره ـ يشهد بوضوح على وجود الله تعالى ، واتصافه بالقدرة الباهرة ، والحكم العظيمة وأنه مســتحق لأن يعبد دون سواه ، وأن من يعشـــو عن ذكره ولا يذكر ماله عليـــه من حق العبادة والشكر فهو من الخاسرين

وآيات الله نوعان :

(أحدهما): مايجرى على الضوابط والنواميس التى أجرى كونه عليها •

(وثانيهما) : مايخالف تلك الضوابط والنظم ، يأتى به الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليتيقظ الغافل من غفلته ، ويرجع المعاند عن عناده ، فيؤمن بأن للكون خـــالقا حكيما ، ومبدعـــا عظيما وأنه لا رب سواه ، وأنه يبعث من فى القبور •

ومن عجائب هذا النوع الثانى : أصحاب الكهف والرقيم فان نومهم الشبيه بالموت مئات السنين ، ومكثهم فيها بلا طعام ولا شراب ، ثم ايقاظهم من رقودهم الطويل ، وبعثهم الى مثل حياة الناس ، أمر مخالف كل المخالفة لسنن الحياة ، أجراه الله لحكمة ستعرفها أيها القارىء الكريم عندما نذكر لك قصتهم ! !

نشأتهم وبعثهم

لأهل الكهف عهدان : عهد نشأتهم حتى نومهم فى الكهف وعهد بعثهم من هذا الرقود •

فأما عهد نشأتهم : فمن المؤرخين من يرجعه الى عصر الملك (دقيوس) ويعبرون عنه بعهد (دقيانوس) ومنهم من يرجعه الى عصر الملك : (تراجان) •

ويقول أصحاب الرأى الأخير : ان (تراجان) هو الذى عرف بأنه كان يتعقب أهل الايمـان فى العهد المسـيحى الأول بالايذاء ، وقد أصدر مرسوما يقضى بأن كل مسـيحى يرفض عبادة آلهة الدولة والامبراطور الرومانى يحاكم كخائن ويتعرض للموت ، وقد بقى هذا المرسوم ساريا قرنين من الزمان •

وقد ذكر المؤرخ : (يوسـيبوس) : أن المسـيحيين فى سوريا ، استحر فيهم القتل من جراء هذا المرسوم ، وفى انطاكية أحرق بعضعهم أحياء ، ولم ينته عهد الاضطهاد الا حين اعتنق قسطنطين المسيحية ، وجعلها الديانة الرسمية للدولة •

وأصحاب هذا الرأى يرجحونه : بأن داقيوس المعروف (بدقيانوس) ولى بلاده من سنة ٢٤٩ الى سنة ٢٥١ ميلادية فاذا أضفت الى سنة ولايته الأولى مثلا ، ثلثمائة وتسع سنين — وهى مدة نوم أهل الكهف — فان ذلك يقتضى أن بعثهم كان تالية لسنة ٥٥٨ ميلادية ، وهذه الفترة كانت المسيحية فيها منتشرة ولم يكن فيها صراع بين الوثنية والمسيحية يحتاج الى ظهور آية

لصالـــح الديانة المســـيحية ، كآية أصحاب الكهف التى أجمع المؤرخون على أنها جاءت لتأييد ملك صالح بعثوا فى عهده ، يسمى (تندوسيس) تعريب : (ثيودوسيوس) وهو الذى تولى الملك من سنة ٤٠٨ الى سنة ٤٥٠ ، وهو الذى كان فى عهده صراع فى أمتـــه بين الوثنيين فيهـــا وبين المسيحيين ، وهذا هو الذى كان محتاجا الى ظهور هذه الآية لنصرة دينه على الوثنيين ، حتى يصبحوا أمة ذات دين واحد . هو : المسيحية .

فلهذا يترجح أن نشأتهم كانت فى عهد الملك : (تراجان) الطاغية الذى حكم من سنة ٩٨ الى سنة١١٧ ميلادية ، حيث المسيحية كانت ضعيفة فى نشأتها ، والوثنية كانت طاغية عليها فى الحكم الرومانى وقتئذ .

فاذا أضفنا مدة نوم أهل الكهف ــ وهى ٣٠٩ سنة ــ الى سنة مائة ميلادية فى حكم الطاغية : تراجان ، كان حاصل هذا الجمع ٤٠٩ ــ أربعمائة وتسع سنين ميلادية ، وهى احدى سنى حكم الملك الصالح : (تندوسيس) ــ ثيودوسيوس ــ الذى كانت أمته فى عهده خليطا من الوثنيين والمسيحيين ، وهو الذى أجمع المؤرخون على أن أهل الكهف بعثوا فى عهده .

وكذلك نرى نفس النتيجة ، ان أضفت مدة رقادهم الى أية سنة من حكم تراجان ، فان ذلك يوصلك الى حكم الملك الصالح الذى كانت رعيته خليطا بين الوثنيين والمسيحيين ، فلهذا يترجح أن الملك الذى نشئوا فى عهده هو الطاغية : « تراجان » المذكور

قصة أصحاب الكهف

ذكر ابن اسحاق وغـيره : أنه مرج (١) أهـل الانجيـل وعظمت فيهم الخطايا ، وطغت ملوكهم فعبدوا الأوثان وذبحوا للطواغيت ، وفيهم من كانـوا على دين المسيح عليه السـلام متمسكين بعبادة الله وتوحيده ، وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم (دقيانوس) (٢) وفى رواية « دفيوس » ، فانه غلا غلوا شديدا فجاس خلال الديار والبـلاد ، وأكثر فيها الفساد ، قتـل من خالفه من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام ، وكان يتتبع الناس فمن علمـه مسيحيا ، خيره بين القتل وعبادة الأوثان فمن أجابه الى الوثنية رضا بالحياة الدنيا أبقاه ، ومن لم يجبه اليها ابتغاء مرضاة اللـه تعالى ، لم يبال بأية قتلـة قتله ، فكان يقتل أهـل الايمان ، ويقطع أجسـادهم ، ويجعلهـا على سور المدينة وأبوابها .

وكان فتية أهل الكهف من أخلص المؤمنين بالمسيح ، ايمانا يرضى الله تعالى ، وسلكوا منهاج الانجيل الصحيح قبل أن يبدل قال الله تعالى : « انهم فتيـة آمنوا بربهم وزدناهم هـدى » والفتيـة : جمع فتى : وهو : الشاب .

روى أن الشرطة ذهبت بهم الى الملك ، فلما رآهم حديثى

---

(١) مرج : بوزن فرح ، أى : فسـد .
(٢) لاتنس أن الراجح أنهم كانوا فى عهد : تراجان الطاغية . كما تقدم .

السن ، جعل لهم أجلا يرجعون فيه عن دينهم ، فان مضى قتلهم ان لم يرجعوا عنه •

وقيل : كانوا عظماء مدينتهم ، وقيل : كانوا من خواص الملك ، ولا يسلم هذا وذاك الا اذا كانوا شبانا ليتفق ذلك مع قوله تعالى « انهم فتية » •

وتفصيل احضارهم ومقابلتهم للملك ، وما جرى بينه وبينهم : أنهم لما دخل عليهم رجال الشرطة ، كانت أعينهم تفيض من الدمع ، فأحضروهم بين يدى الجبار •

فقال : ما يمنعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا ! وخيرهم بين القتل وعبادة الأوثان •

فقالوا : ان لنا الها ملأت عظمته وجبروته السموات والأرض ، ولن ندعو من دونه أحدا ، فاقض ما أنت قاض •

فأمر الجبار بنزع ما عليهم من الثياب الفاخرة ، وأخرجهم من عنده ، وذهب الى مدينة أخرى لبعض شأنه ، وأمهلهم الى رجوعه وقال : ما يمنعنى من أن أعجل عقوبتكم الا أنى أراكم شبانا ، فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلا تتأملون فيه فان أجبتمونى أبقيت عليكم ، والا أهلكتكم •

فلما علموا خروجه اشتوروا فيما بينهم ، واتفقوا على أن يأخذ كل منهم نفقة من أهله ، فيتصدق ببعضها ، ويتزود بالباقى وينطلقوا الى كهف قريب من المدينة ، يقال له : (بنحلوس) •

ففعلوا ما اتفقوا عليه ، وآووا الى الـكهف ، فلبثوا فيه ليس لهم عمل الا : الصلاة والصيام والتسبيح والتحميد، وفوضوا أمر نفقتهم الى فتى منهم اسـمه (يمليخا) فكان اذا أصبح يتنكر ويشـترى لهم من المدينة ما يهمهم ، ويتحسس ما فيها من الأخبار ويعود اليهم ، فلبثوا على ذلك الى أن قدم الجبار فتطلبهم وأحضر آباءهم ، فاعتذروا بأنهم عصـوهم ونهبوا أموالهم وبذروها فى الأسـواق ، وفروا الى الجبـل ، وكان (يمليخا) اذ ذاك بالمدينة فرجع الى أصحابه ـ وهو يبكى ـ ومعه قليل طعام ، فأخبرهم بما علم من طلب الملك لهم وتعنيفه لآبائهم ، ففزعوا الى الله تعالى ، وخروا له سجدا ، ثم رفعوا رءوسهم وجلسوا يتحدثون فى أمرهم ، فضرب الله على آذانهم فناموا ونفقتهم عند رءوسهم ، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ـ أى مدخل الكهف ـ فأصابه ما أصابهم فى كهفهم من النوم ثلاثمائة وتسع سنين .

ومما قيل فى قصتهـم : ان الجبار خرج فى طلبهم بخيله ورجله ، فوجدهـم دخلوا الكهف فأمر باخراجهم ، فلم يطق أحد أن يدخله .

فلما ضاق بهم ذرعا قال قائل منهم : ألست لو كنت قدرت عليهم قتلتهم : قال بلى ، قال : فابن عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعا وعطشا ، و ليكن كهفهم قبرا لهم ، ففعل ثم كان من شأنهم ما قص الله تعالى .

وهذا الجزء من قصتهم غير مقبول ، فان الله تعالى يقول فى شأنهم : « وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله » فالآية ناطقة بأن مدخل كهفهم كان مفتوحاً لم يسد ، وأن الشمس اذا طلعت كانت تتنحى عن كهفهم ذات اليمين — أى جهة يمين الكهف — واذا اتجهت الى الغروب بعد الزوال تعدل عنهم ذات شمال الكهف ، وهم فى متسع منه لا يمنع من وصول الشمس اليهم طول النهار ، ولكن الله صرفه الشمس عنهم بقدرته ليسلموا من أذى حرها على منهاج خرق العادة كرامة لهم ،وكان ذلك من آيات الله كما نصت الآية الكريمة فيكون القول بأن الملك اهتدى اليهم ، وسد باب مغارتهم غير مسلم •

وقد أحسن أبو حيان اذ قال فى البحر : لا معول الا على ما قص الله تعالى من نبئهم !! هـ •

ولهذا نؤثر ما أخرجه : ابن أبى شيبة وغيره عن ابن عباس أنهم لما فقدوا فى أهلهم جعلوا يطلبونهم فلم يظفروا بهم ، فرفع أمرهم الى الملك ، فقال : ليكونن لهؤلاء القوم بعد اليوم شأن ناس لا ندرى أين ذهبوا فى غير جناية ولا شىء يعرف ، فدعا بلوح من رصاص ، كتبت فيه أسماؤهم ، ثم طرح فى خزانة ثم كان من شأنهم ما قصه الله سبحانه • اهـ

فهذه الرواية لا تتعارض مع القرآن الكريم ، ولقد مدح

الله هؤلاء الفتية وأثنى عليهم بالصبر على فراق الأهل ، وترك النعيم والأصدقاء ، وعدم الاهتمام بوعيد الجبار ، اذ قال سبحانه :« وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا » .

والمراد من قيامهم وقوفهم بين يدى الجبار مصرين على التوحيد أو قاموا قيام عزم وتصميم على التوجه الى الله ، ونبذ ما عليه الوثنيون من قومهم وتجهيلهم فى الاشراك بالله تعالى وثقتهم برحمة الله ، وذلك ما حكاه الله بقوله : « هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا . واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من امركم مرفقا ». أى : ما ترتفقون به وتنتفقون .

حالهم فى الكهف

من عادة النائم أن يكون مقفل العينين ، أما أهل الكهف فكانوا فى رقودهم مفتوحى الأعين ، فاذا رآهم أحد ظنهم مستيقظين مع أنهم نائمون ، قال تعالى : « وتحسبهم أيقاظا وهم رقود » .

وكان المولى سبحانة يجرى عليهم أحكام النائمين : فكان يقلبهم على أيمانهم وشمائلهم ، ليحفظ بذلك أبدانهم ، كما جرت به العادة ، لحكمة لا يزال علمها عند الله تعالى : « ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » .

كلب أهل الكهف

لم يذكر الله تعالى من قصته سوى قوله : « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » أى أنه ماد ذراعيه بموضع باب الكهف ومدخله كأنه قائم على حراسة من فى داخله وقد اختلفوا فى شأنه .

فقيل : انه كلب راع مروا به فتبع الراعى دينهم وذهب معهم ، ونسب هذا القول لابن عباس .

وقيل : انه كلب مروا به فتتبعهم فطردوه فعاد ، ففعلوا به ذلك مرارا فأصر على أن يلحق بهم فتركوه ، فلما ناموا كان فى حراستهم ، ثم نام نومتهم .

والله أعلم بصحة هذا الكلام ، وبمن يقوله منهم على فرض صحته .

وكان منظر أهل الكهف فى رقودهم يملأ القلوب رعبا ، ويحمل من يراهم على الفرار منهم ، لما ألقاه الله عليهم من الهيبة والجلال ولهذا لم يصابوا بسوء فى كهفهم طيلة هذه المئات من السنين ، مع أن مدخل كهفهم كان مكشوفا لا باب عليه .

أما ماقيل من أن سبب الرعب منهم : هو طول شعورهم وأظفارهم وصفرة وجوههم وتغير ثيابهم فليس بمقبول ، لأنهم لو كانوا بتلك الصفة لأنكروا أحوالهم ، ولم يقولوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، ولما اجترءوا على أن يبعثوا أحدهم الى المدينة

ليشترى لهم طعاما ، ولأن من بعثوه الى المدينة لذلك ، لم ينكر منه أهلها الا نقوده القديمة كما سيأتى بيانه ، فلو كان حالهم كما قيل لأنكره أهل المدينة ولسجله القرآن الكريم .

يقظتهم وما بعدها

بعد أن نام أهل الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ، أيقظهم الله تعالى فتساءلوا بينهم .

قال قائل منهم : كم لبثتم نائمين ؟

فقال آخر : لبثنا يوما أو بعض يوم . . . . فلم يكن فى حالهم ما يشعرهم أنهم مكثوا هذه المدة الطويلة ، كما أن النوم تلك المدة لا يمكن أن يدور بمخيلة أحد .

فقال بعض ثالث : « ربكم أعلم بما لبثتم » . . . لأنه لم يجد أمارات تحدد مدة لبثهم نائمين .

ونظرا لأنهم ناموا أكثر من المعتاد ، بعثوا بعضهم ومعه بعض الورق — أى بعض العملة المضروبة من الفضة (١) — ليشترى لهم من المدينة التى خرجوا منها طعاما ، وطلبوا منه : أن يتلطف حتى لا تقع خصومة تنتهى الى معرفته ، وأن لا يفعل ما يشعر بهم أحد ، وقالوا تعليلا لذلك : « انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا » فان الاكراه على الكفر قد يؤدى الى استدراج الشيطان لهم ليستحسنوه ويستمروا عليه .

---

(١) أصل معنى الورق : الفضة مضروبة وغير مضروبة .

فدخل مبعوثهم المدينة التى خرجوا منها فى حذر بالــغ ، ولكنه جعل ينكر الوجوه التى رآها ولا يعرف أحدا ، فأتى رجلا منهم ليشترى منه طعاما ، وأعطاه ثمنه من النقد الذى خرج به فأنكره التاجر ، حيث رآه مضروبا فى عهد الملــك الوثنى الذى عاصروه وكان خروجهم بسببه ، فاتهمه بــكنز •

وقال : لئن لم تدلنى عليه لأرفعنك الى الملك •

فقال : هى من ضرب الملك ، أليس ملككم فــلانا •

فقال الرجل : بل ملــكنا تندوسيس •

فاجتمع الناس وذهبوا به الى الملك فسأله عن شأنه فقص قصتهم ، وكان قد سمع بأمرهم مع ملكهم الوثنى ، فدعا مشيخة بلده ، وكان رجل منهم عنده أسماؤهم وأنسابهم ، فسأله فأخبره بذلك ، وسأل الفتى فقال : صــدق •

ثم قال الملك : أيها الناس ، هذه آية الله ساقها الله اليكم ليؤمن بربه من لم يؤمن من قبل،ليعلم الناس أن الأمر كله بيده لا دخل لأحد فى شىء من ملكه ، فهو الاله وحده فــلا يصح أن يعبد أحــد سواه •

ويروى : أنه دعا باللوح الذى كتب فيه أسماؤهم ، وكان فى خزينة الملك من عهد « تراجان » الجبار كما ذكرناه سابقــا ، فقرأ أسماءهم فاذا فيها اسم هذا الفتى ، فقــال : هؤلاء الذين معى فى اللوح هم أصحابى ، فركب القوم مع الملك ليروهم ، فلما

أتوا الكهف قال الفتى : دعونى حتى أدخل على أصحابى فأبشرهم فانهم اذا رأوكم معى رعبوا ، فدخـل وبشرهم ، وقبض اللـه أرواحهم ، فوضعوا فى توابيت .

واقترح بعضهم أن يسد باب الكهف لئلا يتطرق الناس اليهم، ولكن الملك والمؤمنين ، رأوا أن يبنوا عليهم مكانا لعبادة اللـه — تعالى — وفى ذلك يقول سبحانه : « وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها اذ يتنازعـون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا » .

ولقد دلت هذه الآية على أن الله أعثر قومهم عليهم فى وقت كانوا فيه متنازعين فى أمر دينهم،فقد كانوا مختلفين فى أمر البعث، ما بين معترف به وجاحد له،وقائل : ببعث الأرواح دون الأجساد وقائل : ببعثها جميعا .

ومنشأ هذا الخلاف أن بعضهم كان مؤمنا والآخر كافرا ، وكان ملكهم وقت هذا الخلاف يسمى : « تندوسيس » ، وكـان رجلا صالحا فشق عليه خلافهم ، فلبس المسـوح وجلس على الرماد ، ودعا الله أن يبعث لهم آية تهديهم الى الحـق ، فأعثر الله عليهم بالطريقة التى أوضحناها ، وقد فرح الملك بهذه الآية التى ساقها اللـه الى قومه ، فانها ناطقة بأن قوة فائقـة لا حد لها ، أنامت هؤلاء الفتيـة ، وجعلتهم فى حكم الأمـوات ثلاثمائة وتسع سنين،وأغنتهم فى هذه الفترة عن الحاجة الى غذاء

يبقـى عليهم حياتهم ، ويحفظ أنفاسهـم تتردد فى صدورهم ، وأجسادهم غضة طرية ، طول هذا الرقود الطـويل ، وأرجعته اليهم بعـده حواسهم ومشاعرهم الى ما كـانت عليه ، وأطلقت نفوسهم من عقالها ، وجعلتها تدبر أبدانها،وأن هذه القوة العظيمة لا تكون الا لاله عظيم قادر على بعث الأموات الى الحياة من جديد كما حـدث لهـؤلاء ! ! !

ولا شك : أنه كان لظهور هذه الآية أثرها فى نفوس الوثنيين من أتباع الملك الصالح ـ وكانـوا منكرين للبعث ـ فأثمـرت ثمرتها المرجوة ، وهى هدايتهم الى سواء السبيـل •

عدد أصحاب الكهف

حدث خلاف فى عددهم بين أهل الكتاب والمسلمين فى عهـد النبى صلى الله عليه وسلم ، فبعض أهل الكتاب قال : هم ثلاثة رابعهم كلبهم ـ وقائل ذلك هم اليهود ، وقيل هو : السيد من نصارى نجران وكان يعقوبيـا ـ وبعضهم قال : هم خمسـة سادسهم كلبهم ، وقائله هم : النصارى أو العاقب منهم ـ وكان نسطوريا ـ وبعضهم قال : هم سبعة وثامنهم كلبهم ـ وهو : الحق الذى فهم من القرآن الكريم ، فقد قال تعالى : « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهـم رجمـا بالغيب » أى رميا بالخبر الذى لـم يصلوا الى الحق فيـه ، ولمـا قال عقبـه : « ويقـولون سبعـة وثامنهـم كلبهـم »

لــم يصف القــول بأنه رجــم بالغيب ، فــكان ذلك مؤذنــا بأن ذلك عددهم،ولا سيما أنه قد اقترن بالواو فى قوله : «وثامنهم كلبهم » وعندها قطعت العدة وقال الله عقبها : « قل ربى أعلم بعدتهم » •

وقد دل قوله تعالى بعد ذلك : « ما يعلمهم الا قليل » على أن قلة من الناس وفقهم الله تعالى الى ما استطاعوا به أن يعرفوا عددهم ، وهو سبعة وثامنهم كلبهم •

وقال ابن عباس : أنا من ذلك القليل ، وقال : حين وقعت الواو انقطعت العدة ، أى لم يبق لأحد أن يذكر عددا سوى هذا فهو المعول عليه ، وأن الله قد أنهى العدد عند القول الأخير الذى فيــه واو الثمانية ، فيــكون هو عــددهم •

وقد وافقه الامام : « على » فى أن هذا هو عددهم ، وبــه قال المؤمنون استنباطا من الآية الكريمة ، مخالفين معظم أهــل الــكتاب •

هل يوجد كهفهم فى الأردن ؟

ذهب جماعة الى أن الكهف فى الأردن ، فقد ذكر الهروى : أن « البلقــاء » بلد به « الكهف والرقيم » عند مدينة يقال لها : « عمــان » بها آثــار قديمة ، ووافقه ياقــوت •

وقال القدسى : الرقيم : قرية على فرســخ من « عمــان » على تخوم البادية ، فيها مغارة لها بابان صغير وكبير •

وروى عن ابن عباس : أن الرقيم واد بين : غضبان وأيلة دون فلسطين ، وفيه أصحاب الكهف ! أ هـ • وغضبان بالضاد المعجمة واد بالشام •

وقد دفع هذا رجال مصلحة الآثار بالمملكة الأردنية ، الى التنقيب عن الكهف فى تلك المنطقة ، حتى اكتشفوا آثارا وكهفا أعلنوا أنه هو الكهف الذى أوى اليه أهل الكهف الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم •

وفى سنة ١٩٦٦ م ظهر كتاب للأستاذ : « رفيق الدجانى » المساعد الفنى لمدير الآثار العربية بالأردن ، ذكر فيه أنهم اكتشفوا الكهف بالرجيب هناك ، وقبل اكتشافهم له ، عثروا على ثلاثة كهوف جميلة النقش والزخارف ، ثم عثروا على آثارمسجد بنى على بقايا صومعة بيزنطية فوق الكهف الذى يبحثون عنه مباشرة ، والصومعة أنشئت فى عهد الملك (بسنيوس) بين سنتى ٥١٨ ، ٥٢٧ ، والمسجد الذى بنى على بقاياها ، بنى فى عهد (عبدالملك ابن مروان) ، وقال : ان (صلاح الدين الأيوبى) زار الكهف ، كما أثبتته الكتابة التى بداخله ، ثم عثر على مسجد آخر أمام الكهف •

ويوجد بداخل الكهف نقوش بيزنطية ، وكتابة بالخطين : الكوفى واليونانى القديمين ، ولكنها لم تقرأ بعد،واكتشفوا رسما باللون الأحمر لحيوان يشبه الكلب ، حوله كثير من الكتابات

والرموز بالخط اليونانى القديـم ، وثمانية مدافن من العهـد البيزنطـى •

ويقول الأستاذ الدجانى : ان بقايا الصومعة التى بنى عليها المسجد فوق الكهف ، تدل على أنها هى المسجد الذى قال اللـه تعالى فيه حكاية لقول من غلبوا على أمرهم : « لنتخذن عليهم مسجـدا » وأن الكهف الـذى تحتها هو كهفهـم ، وأيد هذا الاستنتاج : بأن الشمس لا تدخل كهف الرجيب ، كمـا جاء فى القرآن الكريم أنها لا تدخله ، وأن به ثمانية قبور بعدد أصحاب الكهف ، وأن صـورة كلبهم مرسومة على جداره — الى آخـر ما ذكـره •

ثم تمضى الأيام والسنون تباعا بعد ظهور كتاب الأستاذ : الدجانى ، حتى يوم ١٩٧٦/٦/٤ ، فتطالعنا صحيفة الأهـرام المصرية بحديث لها مع الأستاذ : محمد تيسـير ظبيان ، رئيس رابطة العلوم الاسلامية بعمان ، قال فيه : ان الكهف تم العثور بداخله ، على سبعة جماجم بشرية وجمجمة كلب ، وان كل ما وجد بداخله يطابق تماما ما ورد فى سورة الكهف ، وذكر أن موضع الكهف يتم اعداده ليكون مزارا للمسلمين،وأنه سيعلن عنه رسميا من جانب الأردن خـلال شهرين ، وقال : ان وزارة الأوقـاف الأردنية نشرت عنه كتابا خاصا ، ولعله يقصد بهذا الكتاب ذلك الـذى ظهر حوالى سنة ١٩٦٦ ، وقـد تحدثنا عنـه من قبل •

ثم قال الأستاذ ظبيان فى حديثه : ان المفسرين اختلفوا فى تحديد مكانهم،فمنهم من قال : بوجوده فى دمشق ، ومنهم من قال: بوجوده فى (أفسوس) بتركيا ، ومنهم من قال : بوجـــوده فى منطقة البلقاء على مقربة من عمان •

وبعد التحرى : تبين لنا أن من قالوا : بوجود الكهف بالبلقاء هم المصيبون ، فاتجهنا الى كهف الرقيم الذى جاء ذكره فى قوله تعالى : « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبـــــا » •

وذكر الأستاذ ظبيان فى حديثه : أن الرقيم قرية على سبعة كيلومترات من عمان ، وقد حرف اسمها الآن الى الرجيب ، ثم قال : انهم بعد دراسات واتصالات مع سكان البادية فى هذه المنطقة حوالى سنـــة ١٩٦٢ علموا منهم : أن فى منطقتهم غارا ولكنـــه يصعب الوصول اليه لوعورة الطريق ، وقد أعددنا أنفسنا مـــع فريق من الكشافة الملحقة برابطة العلوم الاسلامية،وسلكنا الطريق الوعر ، حتى وصلنا الى المكان الذى حدده لنا سكان الباديـــة فوجدناه مغطى بالتراب والحجارة ، فبدأنا ازالة ما يغطى الكهف، حتى تحققنا من وجوده ، وقمنا بابلاغ دائرة الآثار الأردنية ، فقامت بالحفر تحت رياسة المرحوم الدكتور : رفيق الدجانـــى المساعد الفنى للدائرة •

نتائج الحفــر

وذكر في حديثه أن نتائج الحفــر ما يلى :

(١) عثر داخل الكهف على نقوش وأدوات زينة ونقود من العهد البيزنطى من القرن الثالث بعــد الميلاد .

(٢) عثر على المسجد (المعبد) الذى ورد فى القرآن الــكريم فى قوله تعالى :« قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجــدا » .

(٣) عثر على سبعة قبور وفقا لما ورد ذكره فى القرآن ــ كــذا قال ــ كما عثر على قبر ثامن للكلب الذى تبعهم الى الكهف « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » .

(٤) عثر على سبع جماجم بشرية وجمجمة حيوان فى القبــور المكتشفة ، وقد ثبت أنها جمجمة كلب .

(٥) بعد تنظيف الموقع ظهر موقع المعبد الذى أقيم فوق الكهف، وأعمدته باقية ، وبعد اجراء فحص للنقوش والــكتابات الموجودة على جدران الكهف وعلى القبور السبعة تبين أنها بيزنطية ، وهو ما يتفق والعصر الذى عاش فيه الفتيــة السبعة ، كما أن الآيات الكريمة تنطبق تمام الانطباق على هذا المكان دون غيره ــ كذا قال ــ ولا سيما قوله تعالى : « وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه » .

وعقب ذكر الآية بقوله : فالشمس تمر فعلا عند طلوعها من أمام باب الكهف ، وعند غروبها تنحرف عنه ، وأشعتها لا تدخل الكهف لحكمة الهية ، وقد عثر على الفجوة التى بداخل الكهف بالصدفة ، فعندما أزلنا الأتربة والحجارة ظهرت كوة عليها غطاء حجرى مثقوب ، فلما رفعنا هذا الغطاء ، اذ به ينفذ الى داخل الكهف حيث توجد فجوة يبلغ اتساعها حوالى أربعة أمتار فى ثلاثة تقريبا .

مصادر البحث

وقال الأستاذ ظبيان فى حديثه للأهرام : اعتمدنا فى البحث على مصادر اسلامية ومصادر مسيحية ، وأول المصادر الاسلامية تفاسير القرآن الكريم .

وأما المصادر غير الاسلامية ، فمنها ما رواه المستشرق الفرنسى : (كليمانت جانو) — سنة ١٨٦٠ — وكان قنصلا لفرنسا فى بيت المقدس ، وكان هذا المستشرق يعنى عناية خاصة بالدراسات الاسلامية ، وزيارة المواقع الأثرية الاسلامية ، وقد زار هذا المكان فى حينه ، وأكد أن هذا الموقع هو الذى تحدثت عنه المصادر الاسلامية والمسيحية على السواء ، والتقط للمكان عددا من الصور ضمنها كتابه الذى وضعه عن المواقع الاثرية الاسلامية ، ثم قال الأستاذ تيسير ظبيان : وبعد أن تأكدنا من المكان ، قمنا بتعمير المنطقة ، وتم انشاء ضاحية اسلامية سميت :

ضاحية أهل الكهف) كما قامت رابطة العلوم الاسلامية بالتعاون مع وزارة الأوقاف الأردنية ، ببناء مسجد جديد على مقربة من المسجد القديم ، سوف ينتهى اعداده خلال شهرين حيث يعلن رسميا بعد ذلك عن الكشف .

وعقب محرر الأهرام على ذلك الحديث قائلا : والآن ماذا يرى رجال الأزهر والأوقاف فى هذا الكشف ، ومدى مطابقته للروايات الدينية والتاريخية الموثوق بها .

تعقيبنا على كشف الأردن

ذكرنا من قبل أن علماءنا الأولين ، ذهب بعضهم الى أن الكهف الذى أشار اليه القرآن فى الأردن ، فلهذا يحتمل أن يكون كشف مصلحة الآثار الأردنية ، أوصلنا الى الكهف الذى عناه القرآن ، ولقد كان شيوع هذا الاحتمال قديما دافعا للمسلمين والمسيحيين على السواء،أن يبنوا المساجد والمعابد بتلك المنطقة.

وان هذا الاحتمال لم يكن قطعيا عند قائليه الأولين،وليست الشواهد التى قالها من قبل الأستاذ رفيق الدجانى — عليه رحمة الله — وأيدها الأستاذ تيسير ظبيان فى حديثه للأهرام ، ليست هذه الشواهد والآثار كافية لتحويل الاحتمال الى حقيقة علمية ، فان الكهوف توجد فى كل بلد به جبال ، وقد رأيت كهفا عميقا فى جبل المقطم يسكن فيه جماعة من المتصوفة .

ووجود صومعـــة رومانية فوقه ليس دليلا على أنه هـــو الكهف القرآنى ، بدليل قول الأستاذ الدجانى : انها بنيت بـــين سنتى (٥١٨ — ٥٢٧) فان هذا التاريخ بعد بعث أصحاب الكهف بفترة طويلة ، فارجع الى ما قدمناه فى أول مبحث أهل الـــكهف من أن التحقيق الدقيق يفضى الى أن مبعثهم كان فى عهد الملك (تندوسيس) فى أوائل القرن الخامس الميلادى وليس فى أوائل القرن السادس الذى بنيت فيه صومعة الأردن — كما قال الأستاذ الدجانى — رحمه الله — والقرآن الكريم ظاهر فى أن المسجد بنى عليهم عقب اطلاع الملك الصالح عليهم موتى بعد أن رجع اليهم رفيقهم معه ، فان تأكيد الملك بقوله : « لنتخذن عليهم مسجدا » يؤذن بأنه سيسارع ببنائه بعد أن ظهرت كرامتهم على اللـــه ، وأقاموا الدليل على وجود الله وقدرته وأنه يبعث من فى القبور ، وأن قصتهم كانت سببا فى توبة الكافرين المنكرين للبعث ، وقد أيد المؤرخون بناءه عقب اكتشاف وفاتهم بعد رجـــوع أخيهم اليهم .

فأى مانع من أن تكون هذه البقايا من الصومعة ، هى أثر لكنيسة رومانية بنيت هناك ؟ اما يظن أنه كهف أهل الكهف ، أو لأن هذه المنطقة عامرة بالسكان المسيحيين فبنوا هذه الصومعة ليتعبدوا فيها ، أو لأنها مقبرة والمساجد والمعابد توجد كثيرا بين المقابر ، كما فى مساجد المماليك فى صحراء الدراسة .

وعدم دخول الشمس كـــهف الأردن ليس دليلا على أنـــه

الكهف القرآنى ، فانها لا تدخله لموقعه الجغرافى ، أما الكهف القرآنى ، فانها لا تدخله مع تمكنها من دخوله لأن موقعه الجغرافى يسمح بدخولها مع اتساع مدخله ، وانما تنفذ اليه أشعة الشمس ، ليكون ذلك من آيات الله ، قال تعالى : « وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله » .

والقبور الثمانية التى وجدت بداخل الكهف ليست دليلا قاطعا على أنها قبورهم ، فقد تكون قبورا لبعض عظماء البيزنطيين صادف أنها ثمانية ، على أنه لم يرد فى كتاب الله أنهم كانت لهم ولكلبهم ثمانية قبور ، ولا نعلم من حديث الرسول ما يدل على ذلك .

فأى مانع من أن يكونوا قد قبروا فى مكان واحد هو : (الكهف) ، وأنه سد بابه عليهم ؟ .

ولو قال الأستاذان رفيق الدجانى وتيسير ظبيان : انهم وجدوا كتابة رومانية قديمة تثبت أنه كهفهم ، لكان ذلك حجة قاطعة فى الموضوع .

ويلاحظ أن الصورة المرسومة باللون الأحمر ، قال فيها الدجانى : انها تشبه صورة كلب ، ولم يقطع بأنها صورة له ، والكتابة والرموز التى حولها لم يعرفوا شيئا مما جاء فيها ، أو عرفوا ولكنها ليست قاطعة فى الموضوع ، ومثل ذلك يقال فى الرءوس الثمانية التى يظن أن أحدها لكلب ـ كما قال ظبيان ـ

فانها لا دليل فيها على أنها لأصحاب الكهف ، فلهذا كله يبقى الأمر على الاحتمال ولا يتعداه الى القطع بأنه فى الأردن .

ولهذا ذهب بعضهم ، الى أن الكهف القرآنى فى « أفسوس أو طرسوس » ، قال الآلوسى : جمع بعضهم بين الروايتين بأن اسم بلدهم يوم خرجوا منها كان « أفسوس » ، ولما رقدوا هذه المئات من السنين تغير اسمها فأصبح « طرسوس » : أ هـ .

وكهفهم قريب من مدينتهم ، « وأفسوس أو طرسوس » فى ولاية (قبدونيا) فى الأناضول ، وهذا يقتضى أن هؤلاء الفتية من أهل هذا الاقليم ، ويؤيده ما أخرجه ابن أبى شيبة وغيره عن ابن عباس (١) : (غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم (٢) ، فمررنا بالكهف الذى فيه أصحاب الكهف الذين ذكرهم الله تعالى فى القرآن ، فقال معاوية : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم ، فقال ابن عباس : ليس ذلك لك ، قد منع الله ذلك من هو خير منك فقال : « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » فقال معاوية : لا أنتهى حتى أعلم علمهم ، فبعث رجالا وقال : اذهبوا فادخلوا وانظروا ، فذهبوا فلما دخلوه بعث الله تعالى عليهم ريحا فأخرجتهم) .

وقد تعددت الكهوف التى فوقها مساجد ففى كتاب البحر

---

(١) هذه رواية أخرى غير التى سبقت عنه ، وافادت أنهم من منطقة الأردن .

(٢) تسمى الآن : الأناضول

« لأبى حيان » ، أن فى الشام كهف موتى ، ويزعم مجاوروه أنهم أصحاب الكهف ، وعليهم مسجد وبناء يسمى الرقيم ، ومعهم كلب رمة ، وبالأندلس فى جهة غرناطة بقرب قرية تسمى : « لوشة » كهف موتى ، ومعهم كلب رمة ، أكثرهم قد انجرد لحمه ، وبعضهم متماسك ، وقد مضت القرون السابقة ولم نجد من علم شأنهم ، ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف ، قال ابن عطية : دخلت عليهم فرأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة وعليهم مسجد ، وقريب منهم بناء رومى يسمى : الرقيم ، كأنه قصر مخلق قد بقى بعض جدرانه ، وهو فى فلاة من الأرض خربة ، وبأعلى حصن غرناطة مما يلى القبلة آثار مدينة قديمة يقال لها : «دفيوس» وجدنا فى آثارها غرائب أ هـ .

وقد عثر على كهف فى شبه جزيرة اسكندنافية ، به سبع جثث غير بالية .

فمن تضارب الأقوال عن مدينة أصحاب الكهف وكهفهم ، لانستطيع الجزم بمكانهما ، وكل الذى نستطيع الجزم به هو قصتهم التى جاءت فى القرآن الكريم ، وأنهم آية من آيات الله تعالى ، وندع العلم بما وراء ذلك الى علام الغيوب .

هــل بليت أجسامهم ؟

من العلماء من قال : ببقاء أجسامهم حتى الآن ، لظاهــر قوله تعالى : « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » وفى هذه الاتجاه أخرج ابن أبى حاتم عن شهربن حوشب قال : كان لى صاحب ماض شديد النفس ، فمر بجانب الكهف فقال : لا أنتهى حتى أنظر اليهم ، فقيل له : لا تفعل أما تقرأقوله تعالى : « لو اطلعت عليهم » الآية ، فأبى الا أن ينظر ، فأشرف عليهم ، فابيضت عيناه ، وتغير شعره ، وكان يخبر الناس بــأن عدتهم سبعــة •

وروى أن عبادة بن الصامت لما بعثه أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ رسولا الى ملك الروم ، يدعوه الى الاسلام ، مــر على مغارة فيها أجسام غير بالية ، عليها قيم يمسحها ويعتنى بها •

ومن العلماء من قال : ان أجسادهم بليت كشأن كل الأجساد وان الحالة التى يحكيها القرآن الكريم ، كانت لهم وهم رقود قبل بعثهم ، لتصرف الناس عن التعرض لهم بسوء ، حتى تتم المدة الطويلة التى قدر بعثهم من نومهم بعدها ، وكانوا فى تلك المدة أحياء فى مثل حياة النائمين ، وما روى من الأخبار فى شأن وجود أجسامهم لا يرتقى الى درجة القبول رواية ، فضلا عما فيه من التضــارب •

حكم بناء المساجد فوق القبور

استدل بعض العلماء بقوله تعالى : « لنتخذن عليهم مسجدا » على جواز بناء المساجد فوق قبور الصالحين وجواز الصلاة فيها ، ذكره الشهاب الخفاجي في حواشيه على البيضاوي ،

وأساس هذا الاستنباط أن شرع من قبلنا شرع لنا — كما هو مقرر لدى علماء الأصول — وهؤلاء قوم مسيحيون ، بنوا كنيسة سماها القرآن مسجدا ، لأنها مكان للصلاة التي يعبر عنها بالسجود أحيانا ، وبما أن القرآن الكريم ، ذكر ذلك دون أن يعقب عليه بما يفيد عدم الرضا ، فذلك يدل على جوازه عند من قبلنا ، وما جاز لمن قبلنا فانه يكون جائزا لنا .....

وهذا رأى باطل ، فقد أخرج أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج » وجاء في حديث رواه مسلم : « الا وان من كان قبلكم ، كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فاني أنهاكم عن ذلك » وأخرج الشيخان وأحمد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وروى أحمد والطبراني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شرار أمتي من تدركهم الساعة وهم أحياء ، ومن يتخذ القبور مساجد » : الى غير ذلك من الاحاديث الشريفة الناهية عن اتخاذ

القبور مساجد والصلاة فيها ، وذكر ابن حجر فى الزواجر : أن بعض الشافعية عدوا من الكبائر اتخاذ القبور مساجد والصلاة اليها واستلامها والطواف بها ونحو ذلك ، واتخاذ القبر مسجدا معنـاه : الصلاة عليه أو اليـه .

والآية الواردة فى بناء مسجد فوق أهل الكهف ، لاتعطى تشريع الجواز استنادا الى أن شرع من قبلنا شرع لنا ، فان هذه القاعدة مقيدة بأن لا يرد فى شرعنا ما يمنع العمل بشرع من قبلنا ، والأحاديث التى أوردناها مانعة من العمل به ، بل هى لاعنة من يفعـل ذلك .

والحكمة فى منع ذلك تحاشى أن يقدس المسلمون أهل القبور التى بنيت عليها المساجد اذا بعد بهم العهد عن صدر الاسلام وتراخى الدعاة فى تبليغ شرع الله ، أو لم يوجد الدعاة ، فقـد حدث مثل ذلك فيمن قبلنـا .

على أن الاستدلال بالآية باعتبار أنها حكت لنـا شرع من قبلنا لا يتم ، فقد جاء فى الحديث : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » فهذا دليل على أن اتخاذ المساجد فوق القبور لم يكن مشروعا ، وأنهم ملعونون لذلك ، والآية لـم تذكر أكثر من عزم من قبلنا على بناء المسجد فـوق القبر على سبيل القصة والرواية ، دون أن تقرن ذلك بالمدح والاقرار ، فـلا يصح الاستدلال بها على الموضوع ، أما اتخاذ المسجد قرب القبر والقبر خارجه فليس ممنوعا شرعـا .

الرقيم وأصحاب الكهف

قد علمت مما سبق أن أصحاب الكهف هم أصحاب الرقيم ، وأن القصة واحدة ، وقد ذهب بعض العلماء : الى أن لأصحاب الكهف قصة تختلف عن قصة أصحاب الرقيم .

فأما قصة أصحاب الكهف فقد ذكرها الله صراحة فى سورة الكهف ، وأما قصة أصحاب الرقيم فقد أشار اليها القرآن بقوله: « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم » أى أصحاب الكهف وأصحاب الرقيم،ولم يذكر القرآن تفصيلا لقصة أصحاب الرقيم بل ذكرتها السنة ، وهى قصة أصحاب الغار الثلاثة التى روتها صحاح الأحاديث ، فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر — رضى الله عنهما — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون اذ أصابهم مطر ، فأووا الى غار فانطبق عليهم،فقال بعضهم لبعض : انه والله لا ينجيكم الا الصدق ، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه ، فقال واحد منهم : اللهم ان كنت تعلم أنه كان لى أجير عمل على فرق (١) من أرز ، فذهب وتركه ، وانى عمدت الى ذلك الفرق فزرعته ، فصار من أمره أنى اشتريت منه بقرا ، وأنه أتانى يطلب أجره ، فقلت اعمد الى تلك البقر فسقها ، فقال لى : انه لى عندك فرق من أرز ، فقلت : اعمد الى تلك البقر فانها من ذلك الفرق ، فساقها . فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك

(١) الفرق : مكيال بالمدينة ، يسع ثلاثة آصع ، أو يسع ستة عشر رطلا ، أو أربعة أرباع . ذكره صاحب القاموس .

ففرج عنا،فانساخت(١)عنهم الصخرة،فقال الآخر : اللهم ان كنت تعلم أنه كان لى أبوان شيخان كبيران ، فكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لى ، فأبطأت عليهما ليلة ، فجئت وقد رقدا — وأهلى وعيالى يتضاغون (٢) من الجوع ، فكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواى ، فكرهت أن أوقظهما ، وكرهت أن أدعهما فيستكينا لشربتهما ، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر ، فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ، فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا الى السماء ، فقال الآخر : اللهم ان كنت تعلم أنه كانت لى ابنة عم من أحب الناس الى ، وأنى راودتها عن نفسها فأبت الا أن آتيها بمائة دينار ، فطلبتها حتى قدرت،فأتيتها بهافدفعتها اليها ، فأمكنتنى من نفسها ، فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم الا بحقه ، فقمت وتركت المائة دينار ، فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ، ففرج الله عنهم فخرجوا »

والرقيم على هذا الرأى موضع بالجبل ، والقصة المذكورة وان كانت عجبا من آيات الله ، ولكنها فيما أرى ليست قصة أصحاب الرقيم الذين جاء ذكرهم بسورة الكهف ، فان الحديث لم يسمهم بأنهم أصحاب الرقيم .

فالظاهر : أن أصحاب الكهف هم أنفسهم أصحاب الرقيم،

---

(١) أى اتجهت الى أسفل .
(٢) أى : يتصايحون .

وأما هؤلاء فيدعون : أصحاب الغار ، لأن الحديث الشريف أخبر أنهم أووا الى غار ليحتموا به من المطر ، ولم يقـل انهم أووا الى الرقيم حتى يدعوا أصحاب الرقيم • والله تعالى أعلم •

ذو القرنين وفتوحاته فى المشارق والمغارب

قال الله — تعالى — فى شأنه فى سورة الكهف : « ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا ، انا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شيء سببا فأتبع سببا » الآيات من ٨٣ — الى — ٩٩

وسبب نزول قصته وقصة أهل الكهف فى القرآن الكريم : أن اليهود قالوا لقريش : اسألوا محمدا عن ثلاثة : عن ذى القرنين وأصحاب الكهف والروح ، فان أجاب عن الأولين وأبهم الثالث فهو نبى ، فان الروح مبهم فى التوراة ، وان أجاب عن الكل أو سكت عن الكل فليس بنبى ، فسألوه فأنزل الله قصتى : أصحاب الكهف وذى القرنين فى سورة الكهف ، وأبهم أمر الروح محيلا العلم بها اليه سبحانه وتعالى وحده فى سورة الاسراء — الآية ٨٥ •

من هــو ذو القرنين ؟

أصح الأقوال فيه — كما قال النيسابورى — : أنه هــو « الاسكندر بن فيلقوس » الرومى ، الذى ملك الدنيا بأسرها ، اذ لو كان غيره لانتشر خبره ولم يخف مكانه •

واسكندر المذكور من أهل « مقدونيا » ، واجمال تاريخه :

انه لما مات أبوه جمع ملوك الروم على ملك واحد ، ثم قصد ملوك الغـرب وقهرهم ، وأمعن حتى انتهـى الى المحيط الغربـى : (الأطلنطى) ثم عاد الى مصر فبنى الاسكندرية وسماها باسمه ثم دخل الشام وقصد بيت المقدس ، وذبح فى مذبحه ، ثم اتجه الى أرمينية : (باب الأبواب) وملكها ، ودان لـه العبرانيون والمصريون والبربر ، ثم توجه نحو دارا : « ملك الفرس » وهزمه وقتله ، واستولى على ممالك الفرس ، ثم قصـد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ، ورجع الى خراسان ، وبنى المدن الكثيرة ، ورجع الى العراق ، ومرض « بشهر زور » ومات بها •

قال الآلوسى : وقيل مات «برومية المدائن» ووضعوه فى تابوت من ذهب ، وحملوه الى « الاسكندرية » التى بناها بعد استيلائه على مصر ، بحكم استيلائه على الفرس ، لأنها كانت وقتئذ تحت حكمهم •

وقال فخر الدين الرازى : لما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين كان رجلا ملك الأرض كلها أو ما يقرب منها ، وثبت فى التاريخ أن من هذا شأنه لم يكن الا « الاسكندر » وجب القطع بأن ذا القرنين هو « الاسكندر » ، ثم قال : وفيه اشكال فانه كان تلميذا لأرسطاليس الحكيم — الفيلسوف — وكان على مذهبه فتعظيم الله له يوجب الحكم بأن مذهب أرسطو حق ، وذلك مما لا سبيل اليـه •

قلت : ليس كل ما ذهب اليه الفلاسفة باطلا ، فلعله أخذ

منه ما حسن ، وترك منه ما لم يحسن . انتهى كلامه بتصرف يسير .

أقول : ويؤدى هذا الاستنتاج ، أن الحكماء تشاوروا فى أن يسجدوا له اجلالا وتعظيما ، فقال : لا يجوز السجود لغير مبدىء الخلق سبحانه وتعالى — كما نقله الشهرستانى — ويلاحظ أن الاسكندر كان موجودا قبل مبعث عيسى — عليه السلام — بثلاثمائة سنة — كما قال الآلوسى .

وذكر أبو الريحان البيرونى المنجم فى كتابه — الآثار الباقية عن القرون الخالية أن ذا القرنين هو : أبو كرب بن عمير ابن امرىء القيس بن أفريقش الحميرى (١) وهو الذى افتخر به تبع اليمانى حيث قال :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما (٢)
ملكا علا فى الأرض غير مفند
بلغ المغارب والمشارق يبتغى
أسباب ملك من حكيم مرشد

(١) افريقش هذا :رحل بجيوشه الى ساحل البحر الأبيض وهو المسمى الآن : بالغرب العربى ، وسميت افريقيا كلها باسمه « مع بعض التصرف فيه — ذكره الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره »

(٢) يريد من كونه مسلما : انه مؤمن بربه، مستسلم له، لا انه على دين محمد — صلى الله عليه وسلم — لانه كان قبل مبعثه .

فرأى مآب الشمس عند غروبها
في عين ذى خلب وثأطة حرمد (١)

ثم قال أبو الريحان : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب لأن الملقبين بكلمة (ذى) كانوا من اليمن ، كذى المنار وذى نواس وذى يزن .

واختار هذا القول (كاتب جلبى) وذكر : أنه كان فى عصر ابراهيم عليه السلام ، وأنه اجتمع معه فى مكة المكرمة وتعانقا وأن شهرة بلوغ « الاسكندر اليونانى » تلميذ أرسطو الغاية القصوى فى غزو الدنيا وملكها دون أبى كرب الحميرى ، انما هى لقرب زمان اليونانى بالنسبة الى أبى كرب الحميرى اليمنى فان بينهما نحو ألفى سنة ، أى : أن أبا كرب يسبقه بألفى سنة وتواريخ هاتيك الأعصار لم يبق منها ما يعول عليه ، ويرجع فى حل المشكلات اليه ، ولعل اليهود انما طلبوا سؤال الرسول عنه ليكون الامتحان أعظم ، لخفاء تاريخه . انتهى كلام (كاتب جلبى) بتصرف يسير .

وقال الآلوسى بعد نقاش وكلام طويل : والأقرب عندى لالزام أهل الملل والنحل الضالين ، الذين يشق عليهم نبذ كتب التاريخ ، وعدم الالتفات الى ما فيها بالكلية — مع كثرتها وانتشارها فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتباين أديان مؤلفيها

(١) مآب الشمس : رجوعها . وعين ذى خلب : اى عين ماء ذى طين أسود والثأطة : الحمأة — وهى الطين الأسود — وكذا الحرمد .

واختلاف أعصارهم — اختيار (الاسكندر بن فيلقوس) الذى غلب (دارا) : ملك الفرس ، واليهود قاطبة على هذا ، لكنهم — لعنهم الله — عابوا الاسكندر ونسبوا اليه القبائح ، مع أنهم يذكرون أنه أكرمهم حين جاء الى بيت المقدس وعظم أحبارهم. انتهى كلام الآلوسى .

ويعجبنى ما قاله العالم الفيلسوف الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره الجواهر :

ولعلك تقول أى القولين أصح ؟ ، أقول لايهم القرآن أيهما فليست هذه من العقائد ، وانما هى نصائح تتلى للموعظة الحسنة ، فليكن « الاسكندر المقدونى » ، أو فليكن رجلا حميريا فى أزمان مضت ، فالقرآن لم يأتنا ليعلمنا تاريخ اليونان أو تاريخ الحميريين ، فان القرآن أعظم من ذلك كله ولكنهم لما سألوه صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين أجابهم بالقول : الذى يجمع بين اجابة الطلب وبين الفائدة الدينية ففيه مع اجمال التاريخ الوعظ ، والوعظ هو المقصود الأساسى من قصص القرآن ! انتهى بتصرف يسير .

وقد ضربنا صفحا عن الخلافات العديدة فى اسمه وأمته وعصره ، واخترنا أرجح الأقوال .

لماذا لقب بذى القرنين ؟

سمى هذا الملك : بذى القرنين ، لأنه بلغ ناحيتى مشرق الشمس ومغربها من الأرض كما نص عليه القرآن الكريم مأخوذ من قرن الشمس بمعنى : ناحيتها .

وقيل كانت له ضفيرتان من شعر فنسب اليهما — ذكره الثعلبى وغيره — والضفائر قرون الرأس .

والوجه الأول فى علة التسمية أولى بالقول ، فان وصف ذى القرنين ذكر على أنه علامة مميزة لهذا الفاتح العظيم ، وكونه ذا ضفيرتين من الشعر لا يصلح أن يكون علامة مميزة ، لأن ارسال الشعر وتضفيره من العادات القديمة للرجال والنساء جميعا .

ولقد أجمل الله سيرة هذا الفاتح قبل أن يفصلها ببعض التفصيل فقال : « انا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا فأتبع سببا »

وتمكينه فى الأرض معناه : اعطاؤه القدرة على التصرف فيها من حيث التدبير والرأى وكثرة الجنود والهيبة .

وايتاؤه من كل شىء سببا معناه : اعطاؤه من أجل كل شىء أراده سببا وطريقا يوصله اليه ، بحيث لا يعوقه عن مراده عائق ، وطريقه الى تحقيق ما يريده هو العلم والاقتدار والجند والآلات المختلفة .

ومعنى « فأتبع سببا » : اقتفى طريقا يوصله الى نجاح رحلاته الثلاث التى تحدث القرآن عنهـا (١) .

والقرآن الكريم يشير بذلك الى وجـوب الأخذ بالأسباب لتحقيق المراد ، فان الغايات لا تنال بالقعود ولا بحلو التمنى ، وروعة الخيال ، وأحلام النائمـين .

رحلته الى المغرب

لعل ذا القرنين بدأ برحلة المغرب ، لأنه كان أقرب اليه من المشرق ، أو لأن الأسباب المـؤدية الى انتصاره على ملـوكه وحكامه كانت وقتئذ أكثر منها الى المشرق ، وعن هذه الرحلـة يقول الله تعالى :

«حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة» .

ومعنى هذه الآية الكريمة : أنه لما بلغ منتهى الأرض العامرة من جهة المغرب وقف على شاطىء المحيط عند غروب الشمس ، فتراءى له أن الشمس تغرب فى عين ذات حمئة ، وهى : الطـين الأسـود .

وأما قراءة « فى عين حامية » فمعناها : أنه لما بلغ المغرب عند المحيط ، تراءى له أن الشمس فى عين متقدة نارية ، وكـلا الأمرين يحدث فى رأى العين ، فان المحيط لا تظهر له نهاية لمن وقف على شاطئه ، فيبدو له كأن الشمس تغرب فيه فى عين طين

(١) أتبع ، واتبع : قراءتان معناهما واحد ـ كما قال الأخفش

أسود بسبب زرقة المياه الشديدةفى المدى البعيد،لكنه اذا أخذفى خاطره حمرة الشمس وتوهجها وهى مرسلة أشعتها الحمراء على الماء عند غروبها ، تراءى له أنها تغرب فى عين ملتهبة ، ولما كان كلا الأمرين ضرب من الخيال ناشئا من خداع النظر ، فلهذا قال الله تعالى : « وجدها تغرب فى عين حمئة » أو « فى عين حامئة» أى أن هذا الذى رآه أمر ناشىء فى وجدانه وخياله ، وليس من الحقائق الواقعة

فما أجمل تعبير القرآن ، وما أحراه بالاجلال والاعتبار !!

ومن خداع الخيال للنظر : أن الشمس تبدو فى طلوعها وغروبها لمن هو على مسطح من الأرض بعيد المدى كأنها تطلع من الأرض وتغرب فيها ، فتكون على الضد بالنسبة لمن هو فى البحر أو على شاطئه .

والحقيقة : أن الشمس أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة وأن الأرض تدور تحت أشعتها ، فتغمر الشمس نصفها بضوئها، لأنها على شكل الكرة ، فيكون النهار فى القسم الذى استضاء بنورها ، والليل فى القسم الآخر ، وكلما دارت الأرض اختفت أشعة الشمس عن بعضها ، فحل فيه الليل محل النهار ، وظهرت أشعتها فى بعض آخر تكشف للشمس ، فحل فيه النهار محل الليل .

والذى يحجب ضوء الشمس عن بعض الأرض هو البروز

الكروى للأرض ، فهو الذى يمنع أشعة الشمس عما انخفض منها بسبب حركتها الدائرة ، ولو كانت مبسوطة وغير دائرة لما غابت الشمس عنها ، ولكان وقتها نهارا دائما .

أما ما ورد فى القرآن الكريم مما يفيد أنها مبسوطة كقوله تعالى فى سورة نوح : « والله جعل لكم الأرض بساطا » فمحمول : على ما هو فى رأى العين ، فانها لكبرها لا يظهر فيها التكور الذى يظهر فى الأجسام الصغيرة عند مجرد النظر ، ثم ان التعبير بقوله : (بساطا) مطلوب فى مقام الامتنان بسلوك السبل الفجاج لطلب الأرزاق .

أما الشمس فانها لا تدور حول الأرض كما كان الناس يعتقدون فى زمن الجهالة ، بل تدور حول نفسها ، وحول شىء لم يعرف حتى الآن .

واذا كان أمر الشمس كذلك : وجب حمل الآية الكريمة على ما بيناه ، اذ لايعقل أنها — وهى أضعاف الأرض — تغيب فى عين حمئة منها ، فضلا عن أنها لا تفارق مدارها الا فى آخر الزمان حين هلاك العالم .

وذلك فى قوله تعالى : « اذا السماء انفطرت . واذا الكواكب انتثرت » وقوله : « اذا الشمس كورت . واذا النجوم انكدرت »

سياسة ذى القرنين

يقول الله تعالى : « وجد عندها قوما » .

أى : أن ذا القرنين وجد فى فتوحاته شعبا وأمة عند العين الحمئة ، التى تراءى له أن الشمس تغرب فيها .

والمقصود : أنه وجد هؤلاء القوم يستوطنون هذه الجهة الغربية من الأرض ، والمحيط المائى من ورائهم ، حيث تراءى له أن الشمس تغرب فى عين حمئة منه .

وقد فوض الله لهذا الملك أن يتخذ السياسة التى يراها مثمرة فيهم ، فاما أن يعذبهم ويقتلهم لظلمهم برفضهم دعوة الاذعان لربهم ، واما أن يمهلهم ويدعوهم الى الايمان ويرشدهم ، فيفعل من الأمرين ما يتفق مع الحكمة والصواب .

وفى ذلك يقول الله تعالى : « قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا » ويحكى القرآن الكريم اجابته على هذا التخيير بقوله تعالى فى سورة الكهف : « قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا ، وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا » .

واستدل بالآية من قال : بنبوة ذى القرنين ، فقد خاطبه الله بهذا التكليف كما يخاطب الأنبياء .

وأصحاب هذا الرأى يقولون : ان خطاب الله له عن طريق ملائكته ، كشأنه سبحانه مع سائر الأنبياء .

أما من نفى نبوته فيقول : ان خطاب الله له عن طريق نبى فى ذلك العصر ، أو كان الهاما •

وقد ظهرت حكمة ذى القرنين فى فهم خطاب الله تعالى ، فقد قسم أهل المغرب الى قسمين فى المعاملة : — حسب موقفهم من دعوة الحق — فمن ظلم نفسه بتماديه فى الكفر والظلم قتله ، ومن قبل دعوة الحق أحسن اليه ، وله جزاء الحسنى من اللـــه تعالى ، ووعده بالتيسير عليه بقوله : « وسنقول له من أمرنا » الذى نأمر به الناس من الزكاة والخراج وغيرهما « يسرا » أى : قولا ذا يسر ، لا صعوبة فيه ولا مشقــة •

رحلة المشرق

بعد أن أتم ذو القرنين رحلته الى ما عرف عماره — وقتئذ — من جهة المغرب قفل راجعا متجها بفتوحاته الى المشرق •

وقد كان الناس وقتئذ يعتقدون أن الأرض مسطحة ، ولها مشرق واحد — هو : بداية الأرض من جهة الشروق — ومغرب واحد — هو : نهايتها من جهة الغروب — ولم يكونوا يعرفــون أن الأرض كروية ودائرة تحت أشعة الشمس ، فما يكون مغربا لقوم يكون مشرقا لآخرين ، وما يكون مشرقا لقوم يكون مغربا لآخرين ، فحكى القرآن فتوحات « ذى القرنين » حسبما عرفه الناس ، حتى لا يفاجئهم بما يجهلون فيعظم انكارهم له وللقرآن الذى جاء به ، فلذا قال : « ثم اتبع سببا ، حتى اذا بلغ مطلــع الشمس » ولم يقل : مطالع الشمس •

والمراد من قوله تعالى : « ثم اتبع سببا » : أنه هيأ أسبابا تليق بسفر المشرق واقتفاها ، وأخذ بها بعد أن وطد أمره بالمغرب، واتجه الى موضع طلوع الشمس فىرأى العين ، وهو : غاية المعمور من الأرض شرقا على حافة المحيط الهادى — حسبما بلغه علم الانسان فى ذلك الوقت — فلما بلغه «وجدها» أى وجد الشمس « تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا » .

وقد أجمل الله حال السكان فى هذه المنطقة بهذه الجملة التى تفيد أنهم بدائيون فطريون ، لم يرتقوا صناعيا حتى يصنعوا لأنفسهم ثيابا تسترهم وتحميهم من أشعة الشمس ، أو مساكن تؤويهم وتقيهم من حرارتها ، وقد يكون هؤلاء فى المنطقة التى قد يمكث فيها النهار أياما متتالية فى فصل ، ثم يمكث الليل كذلك فى فصل آخر من العام ، وأنه انتهى اليها وقتما كان الزمن نهارا بدون ليل ، والشمس طالعة فوقهم دائما ، وليس لهم ليل وقتئذ يسترهم منها ، وأن ذلك هو معنى قوله تعالى : « لم نجعل لهم من دونها سترا » .

وقد أجمل الله تعالى استعداد ذى القرنين لهذه الرحلة البعيدة المدى وعظم أمره وفخمه بقوله : « كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا » أى : مثل هذا الذى حكيناه من ذى القرنين ، كان أمره فى اليسر والسهولة ، وقد أحطنا علما بما عنده من الوسائل التى التى حقق بها ما يريد من بلوغ أطراف الأرض مغربا ومشرقا ، مثل : أدوات النقل البرى والبحرى ، والجنود والآلات الحربية المختلفة ، وحسن التدبير والسياسة .

يأجوج ومأجوج

لما أتم ذو القرنين رحلته الى المشرق ، وأخضع أهله لحكمه، اتخذ طريقا ثالثا لم يكن سلكه من قبل ، ليخضع لحكمه قوما لم يخضعهم بعد ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « ثم أتبع سببا » أى : ثم سلك سبيلا آخر : « حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا » .

والسدان هما : الجبلان ، قال صاحب القاموس : السد هو الجبل ، وقد يطلق على الحاجز .

وسنتحدث عن موضع السدين ان شاء الله تعالى .

وقد وجد ذو القرنين قريبا من السدين أمة من الناس لايكادون يفهمون ما يقوله لهم هو وأتباعه ، لقلة فطنتهم ، فان الذكى المخالف لك فى لغتك ، يستطيع أن يفهم بعض ما تقوله أو تشير اليه بالقرائن ، وكان هو ورجاله يفهمون منهم ما يقولونه وان لم يعرفوا لغتهم ، فلذا شكوا اليه قائلين : « ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا » .

ويأجوج ومأجوج ترجمة عربية لاسميهما ، مأخوذة من : أج الظليم اذا أسرع ، أو من : أجيج النار وهو ضوءها وشررها وهذا المأخذ يشير الى شرهم وضررهم فيمن عداهم ، فهم مثل النار لا جيرة لهم ، كما أن المأخذ الأول يشير الى سرعتهم فى شن الغارات على جيرانهم وسرعة الانتهاء منها والعودة الى ما وراء الجبلين .

والمقصود منهما : المغول والتتار على ما يظهر — والله أعلم — لما سنبينه ان شاء الله تعالى ، وهم من ولد يافث بن نوح .

وقيل : ان الترك منهم ، لما أخرجه ابن جرير وابن مردويه — من طريق السدى : — « والترك سرية من سرايا يأجوج ومأجوج خرجت فجاء ذو القرنين فبنى السد فبقوا خارجين عنه » .

وفى رواية لعبد الرزاق عن قتادة أن هذه السرية كانت خارجة للغزو ، فبقيت خارجة ، وسميت الترك لذلك .

مواطنهم وافسادهم

كان هؤلاء المفسدون يعيشون خلف جبلين،وكانوا ينحدرون من بينهما للافساد فى الأرض ، والجبلان المذكوران ، بين سمرقند والهند ، وهؤلاء هم المغول والتتار كما قلنا من قبل ، وتمتد بلادهم من التبت والصين الى المحيط المتجمد الشمالى ، وتنتهى غربا الى ما يلى بلاد التركستان ، وحددت فى هضبات آسيا الوسطى شمالى الصين ، ما بين الدرجة السابعة والعشرين والدرجة الخمسين من خطوط العرض الشمالية وبذلك تبلغ بلادهم فى العرض ثلاثا وعشرين درجة (١) .

وهذه الأمم معروفة تاريخيا أنها كانت تغير قديما على

---

(١) راجع جـ ٩ من تفسير الجواهر ص ١٩٩ . وقد نقله مؤلفه الشيخ طنطاوى جوهرى من : فاكهة الخلفاء ، وابن مسكوية فى تهذيب الأخلاق ، ورسائل اخوان الصفاء .

الأمم المجاورة من آن لآخر،كما عرف عنهم تجاوز افسادهم الى أطراف الأرض ، فقد انحدروا من مرتفعات آسيا الوسطى الى أوروبا وخربوها ، كما خربوا آسيا الغربيـة التى بعث فيهـا الأنبياء ، وكانوا يحذرون أقوامهم منهم،وسنتحدث عن افسادهم فى عهد الاسلام •

بنـاء السد

لما وصل ذو القرنين الى الوادى القريب من الجبلين اللذين يختفى وراءهما يأجوج ومأجوج ، وجد سكان هذا الوادى فى غاية الشقاء ، بسبب غارات يأجوج ومأجوج عليهم ، منحدرين بين الجبلين اللذين حددنا سابقا مكانهما •

وقد طلبوا منه أن يقيم سدا بين الجبلين يمنعهم من غزوهم اياهـم ، ويحميهم من شرهم ، وأظهـروا استعدادهم لدفـع تكاليفه بقولهم : « فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سـدا » •

ولكن ذا القرنين « قال » معتذرا عن أخذ المـال منهم : « ما مكنى فيه ربى خير » أى : ما جعلنى ربى متمكنا فيـه من الملك والمال والرجال وسائر الأسباب خير من المال الذى تدفعونه فلا حاجة بى اليه « فأعينونى بقوة » أى : بما يتقوى بـه من الأسباب الضرورية للبناء ، كالوقود وخام الحديد وغيرها « أجعل بينكم وبينهم ردما » أى : حاجزا معينا ، والردم : أكـبر من

السد وأوثق ، مأخوذ من قولهم : ســـحاب مردم أى : متكاثفه بعضه فوق بعض ، وقيل : هو والسد بمعنى واحد .

« آتونى زبر الحديد » أى : أحضروا لى قطع الحديــد لأبنى بها السد ، والزبر جمع زبرة — كغرفة — وهى : القطعة ولا بد أنها كانت قريبة المنال منهم ، بأن كانوا قريبين من منجم حديــد .

ويجوز أن يــكون مراده : اجمعوا لى قطع الحديــد من دوركم ، وحينئذ يعطيهم ثمنها ، لأنه لا يريد أن يغرمهم شيئــا فى بنــائه (١) .

وهكذا يكون الحكام الصالحون المصلحــون ! !

ثم أمر بمكعبات الحديد فوضعت بين الصدفين — أى الجبلين — « حتى اذا ساوى بين الصدفين » بأن جعل الردم فى ارتفاعهما « قال » للعمال — بعد أن أوقدوا النار بين قطع الحديد — انفخوا النار بالكيران (٢) لتزداد اتقادا وتعم سائر ما بين قطع الحديد رغبة فى انصهاره « حتى اذا جعله نارا » أى جعل الحديد كالنار « قال » للذين يتولون اذابة المعادن : « آتونى أفرغ عليه قطرا » أى : نحاسا أو رصاصا مصهورا ، فأتوه به فأمر بافراغه على

---

(١) خرج : أى اجر على بنائه — بما مكنه الله منه : من المال والجاه والعلم .

(٢) جمع كور .

الحديد الذى أوقد عليه النار فى السد ، فافرغوه بطرق فنية تضمن لهم السلامة ، ولحجارة السد قوة الالتحام وسد ماعسى أن يكون بينها من فراغ .

وقد أسند البناء والمساواة بين الصدفين وافراغ القطر الى نفسه مع أن العمال هم الذين قاموا بذلك ، لأنه مشرف عليهم وموجه لهم ، وصاحب الأمر فيهم ، فكأنه هو الذى قام بذلك .

فلما برد السد أصبح أملس « فما اسطاعوا أن يظهروه » أى : فما قدروا أن يرتقوا فوقه لملاسته وارتفاعه «وما استطاعوا له نقبا » لشدته وصلابته « قال » ذو القرنين : « هذا » السد القوى « رحمة من ربى » على عباده : لأنه يحميهم من شر المفسدين « فاذا جاء وعد ربى » أى : فاذا جاء وقت وعده بخروجهم « جعله دكاء » أى : أرضا مستوية « وكان وعد ربى حقا . وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض » أى : وكان وعد ربى بخروجهم ثابتا لايتخلف ، وجعلنا بعض الناس يوم يأتى وعدنا بخروج يأجوج ومأجوج من وراء السد يموج بعضهم ، ويختلطون اختلاط الموج بعضه ببعض ، فيختلط يأجوج ومأجوج بغيرهم — وسنحدثك عن ذلك باذن الله .

اسم السد ومكانه

يسمى هذا السد : (سد باب الحديد) وراء جيحون فى عمالة بلخ ، على مقربة من مدينة ترمد ، وقد أقامه «ذو القرنين» بين الجبلين الواقعين بين « سمرقند والهند » — كما قدمنا — وقد دك هذا السد كما وعد الله تعالى ، واجتازه « تيمور لنك » بجيشه ، ومر به (شاه روح) وكان فى خدمته الألمانى (سيلد برجر) الذى جاء ذكر السد فى كتابه ، وذلك فى أوائل القرن الخامس عشر ، كما جاء ذكر هذا السد فى رحلة الأسبانى (كلا فيجو) سنة ١٤٠٣ م ، وكان رسولا من ملك (قشتالة) بالأندلس الى تيمور لنك (١) .

آراء أخرى فى مواطنهم

هذا وقد قيل : ان يأجوج يسكنون قريبا من خط عرض تسعين من جهة الشمال ، وهو المراد : بآخر الجربياء فى كتاب النبى حزقيل .

وقيل : ان جبليهم هما « جبلا أرمينية وأذربيجان » ، ومن زعم أن سد « ذى القرنين » هو السد المشهور : (بباب الأبواب) وهذا يستلزم أن يكون يأجوج ومأجوج من الخزر والترك ، وهذا

(١) راجع ج ٩ ص ١٩٨ من تفسير الجواهر للشيخ طنطاوى جوهرى .

خلاف ما عليه المؤرخون ، فان بانى سد « باب الأبواب » هو : « كسرى أنو شروان » .

وحدد آخرون السد فى أماكن أخــرى ، وقال بعض أهل العلم : انه بموضع من الأرض لا يعلمه الا الله تعــالى ــ وكم فيها من أمور مجهولة ــ ولعله قد حال بيننا وبين ذلك الســد وجبليه ميــاه عظيمة ، ودعوى استقراء الأراضى والبحار غير مســلمة .

حقيقة يأجوج ومأجوج

هم ناس مثل سائر الخلق ، ولكنهم غلب عليهم الشر ، وهم من ذرية « يافث بن نوح » عليه السلام ، وهذا هو الراجح .

وقد أحيطت قصتهم وصورتهم بأكاذيب لا يليق بعاقل أن يصدقها .

ومن عجب : أن بعض رواتها اختلقوا أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤيد مزاعمهم .

ومن ذلك : أنهم نسبوا اليه صلى الله عليه وسلم أنه قال : انهم أمتان كل أمة أربعمائة ألف أمة ، لا يعلم عددها الا الله تعالى ، ولا يموت أحدهم حتى يعقب ألف ذكر من صلبه ، كــل واحد قد حمل السلاح ، وأن بعضهم فى طول شجر الأرز : أى الصنوبر (١) الذى يطول الى مائة وعشرين ذراعا .

(١) هكذا : فسره صاحب القاموس .

الى غير ذلك من الأكاذيب الموضوعة التى لا أصل لها كقول بعضهم : ان طائفة منهم طول : أحدهم ذراع وعرضه كذلك ، وطائفة أخرى يفترش أحدهم احدى أذنيه ويلتحف بالأخرى ، وكل ذلك وأمثاله من الضلالات التى لا يصح تصديقها !!! .

جرائمهم فى عهد الاسلام

قلنا : ان سدهم تخرب ، وانهم خرجوا منه فى غزوات تخريبية ، وذلك مصداق لوعد الله تعالى ، ومن جرائمهم بعد دك السد وتخريبه ، ما حدث منهم فى أوائل القرن السابع الهجرى ، اذ أغاروا بقيادة ملكهم : (جنكيز خان) على بلاد المسلمين ، فاجتاحوا مملكة السلطان : (قطب الدين السلجوقى) ملك التركستان والفرس ، وملكوها بعد حرب امتدت عشر سنين وقتلوا الرجال وسبوا النساء وفعلوا كل منكر ، ولقد أحصى من قتل فى « خوارزم » وحدها ، فخص كل جندى من جنود (جنكيز خان) أربعة وعشرون قتيلا من المسلمين ، وأحرقوا المدينة بعد ما جرت الدماء أنهارا ، وذلك غير ما فعلوه « بسمرقند وبخارى » وغيرهما ، وأفنوا أهل « نيسابور » عن آخرهم ، وكان قتلى (مرو) مليونا وثلاثمائة ألف ، وأخضعوا بلاد الهند ، ومات هذا الطاغية بعد رجوعه من الهند ، وأغار ابن أخيه (هولاكو) بجنوده على مقر الخلافة فى بغداد فى عهد الخليفة : (المستعصم

بالله) وذبحوا الخليفة ، وعلقوا جثته فى ذيل حصان ، وأباحوا المدينة سبعة أيام سالت فيها الدماء أنهارا ، وطرحوا كتب العلم فى نهر : « دجلة » ، وجعلوها جسرا يمرون عليه بخيولهم .

ولما استولت أسرة (جنكيز خان) على آسيا كلها وأوروبا الشرقية اقتسموا الفتوحات بينهم ، وكانت الفرس وبلاد الخلافة حتى الشام من نصيب (هولاكو) لعنه الله ، ثم أذن الله بالنصر فى عهد الملك : (سيف الدين قطز) ، فقد حاربهم وهزمهم وأخرجهم من بلاد المسلمين فى معركة : (عين جالوت) الشهيرة .

وفى شأنهم هذا روى الامام : البخارى بسنده عن زينب بنت جحش : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما فزعا يقول لا اله الا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من سد يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بأصبعه الابهام والتى تليها ، قالت زينب بنت جحش : أنهلك وفينا الصالحون ؟ فقال : نعم اذا كثر الخبث » .

وتعبيره صلى الله عليه وسلم بالفتحة فى السد ، وتصويره لها بتحليقه صلى الله عليه وسلم بأصبعه الابهام والتى تليها كناية عن بداية صغيرة لشرهم ، ثم اتسع هذا الشر فى أوائل القرن السابع الهجرى كما ذكرنا .

موجة عارمة من شرهم

فى آخر الزمان تكون لهم موجة أخرى يدمرون فيها العالم تدميرا ، فانهم بعد اختلاطهم بالناس فترة طويلة اثر استيلائهم عليهم وفتكهم بهم ، تنام فتنتهم زمنا طويلا ، ثم تستيقظ آخر الزمان ، بعد أن يكونوا قد فقدوا القيم الخلقية والدينية التى استفادوها من مخالطيهم من المسلمين ، فيكفرون بعد ايمان ويعصون بعد استقامة ، ويعودون للتدمير كما كان أسلافهم وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم — كما رواه مسلم — من حديث النواس بن سمعان ، فقد جاء فيه بعد ذكر هلاك الدجال بباب لد : « ثم يأتى عيسى قوما قد عصمهم الله من الدجال فيمسح وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة ، فبينما هم كذلك اذ أوحى الله الى عيسى أنى قد أخرجت عبادا لى لايدان لأحد بقتالهم ، فحرز عبادى الى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج ، فيخرجون على الناس ، فينشفون الماء ويتحصن الناس منهم فى حصونهم ، ويضمون اليهم مواشيهم فيشربون مياه الأرض ، حتى أن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبسا ، حتى ان من يمر من بعدهم ليمر من ذلك على النهر فيقول : قد كان هنا ماء مرة ، ويحصر عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور ورأس الحمار لأحدهم خيرا من مائة دينار » وفى رواية لمسلم وغيره : « فيقولون : لقد قتلنا

من فى الأرض ، هلم نقتل من فى السماء ، فيرمون نشابهم الى السماء فيردها الله مخضبة بالدماء للبلاء والفتنة ، فيرغب نبى الله وأصحابه الى الله تعالى ، فيرسل عليهم النغف فى رقابهم فيصبحون فرسى » •

والنغف : نوع من الدود ، وفرسى بالفاء : معناه قتلى وهو جمع فريس : أى قتيل •

والحديث المذكور يؤذن بكثرتهم وعظم فسادهم ، وتسببه ذلك فى تعطيل مرافق الرى ، حتى يقل الماء فى الأنهار فلا يكفيهم وغيرهم •

ويجوز أن الله تعالى يجعل الماء وقتئذ قليلا فتنة وبلاء فاذا نزلوا بجوار ماء شربوه ، فلم يبقوا لغيرهم شيئا لكثرتهم وقلة الماء ، كما يدل الحديث المذكور على أن الله هو الذى يفنيهم ، اذ لا قبل للأمم بقتالهم •

واعلم أن أولئك التتار ، باختلاطهم بالمسلمين ، تأثروا بهم وأسلموا ، وكونوا أغلب المسلمين فى الهند والصين وسائر آسيا ، فكما ورثوا أرضهم بعد قتالهم لهم ، ورثوا دينهم ولكنهم ينقلبون فى آخر الزمان عليه ويكفرون به ، ويشنون الحرب عليه وعلى سائر الأديان •

ولعل ما يوجد اليوم من الالحاد فى روسيا والصين وتأليههم الاقتصاد والمال ، وانكارهم ربوبية الواحد الديان والافتتان بالمال ، والكفر بكل القيم الدينية ، وانتشار الشيوعية

بينهم ، لعل ذلك مقدمة لتلك الفتنة العمياء التى أشار اليها حديث البخارى وحديث مسلم ، نسأل الله السلامة من شرهم والوفاة على كمال الايمان والاسلام .

رحلة عربية الى سد يأجوج ومأجوج

رأى « الواثق بالله » فى منامه كأن السد الذى بناه ذو القرنين لحماية الناس من شر يأجوج ومأجوج ، رآه كأنه مفتوح ، وكان الشائع فى وقته أن هذا السد قرب (أرمينية) فاستدعى (الواثق) ترجمانا له يقال له (سلام) ، وأمره بالتوجه اليه على رأس بعثة لاستكشافه ، وكانت هذه أول رحلة فى العالم الاسلامى لهذا الغرض .

وأول من روى خبرها هو المؤرخ : (ابن خرداذبه) فقد لقى رئيس البعثة : (سلاما الترجمان) ، واستملى منه ما كتبه عنها للخليفة : (الواثق بالله) .

انظر : (المسالك والممالك طبع ليدن سنة ١٣٠٦ هـ — سنة ١٨٨٩ م) وعن ابن خرداذبه ، نقل جميع المؤلفين بعده . مثل الادريسى والمقدسى وابن الفقيه الهمذانى .

وتفصيل خبرها أن الواثق قال لترجمانه : اذهب الى هذا السد وجئنى بخبره وحاله وما هو عليه ، وأمره أن يصحبه فى هذه الرحلة خمسون رجلا ، ومنحه خمسين ألف دينار ، وأعطاه عشرة آلاف درهم فى مقابل ديته — على فرض موته أثناء

الرحلة — وأعطى كل واحد من أصحابه الخمسين ألف درهم ورزق سنة ، وأمر لهم بمائة بغل تحمل الزاد والماء .

قال سلام الترجمان : شخصنا من (سامرا) بكتاب الواثق الى اسحاق بن اسماعيل صاحب أرمينية ، بالنظر الى تنفيذنا من هناك (١) ، فكتب لنا كتابا الى ملك : « السرير » (٢) ، فلما وصلت اليه أشخصنا الى ملك (اللان) ، فلما وصلنا اليه أشخصنا الى صاحب : (فيلان شاة) (٣) ، فلما وردنا عليه أرسلنا الى ملك : (الخزر) (٤) ، فاختار لنا خمسة أدلاء يرشدوننا الى الطريق ، فسرنا من عنده سبعة وعشرين يوما فى تخوم بلاد : (بسجرت) الى أن وصلنا الى أرض سوداء طويلة ممتدة كريهة الرائحة فقطعناها فى عشرة أيام ، وكنا قد تزودنا لقطعها أشياء نشمها خوفا من أذى روائحها الكريهة ثم انفصلنا عنها ، فسرنا مدة شهر فى بلاد خراب قد درست أبنيتها ولم يبق منها الا رسوم يستدل بها عليها ، فسألنا من معنا عن تلك المدن ؟ فأخبرونا أنها المدن التى كان يأجوج ومأجوج يغزونها ويخربونها ، ثم سرنا الى حصون بالقرب من الجبل

(١) كان الغرض من كتاب « الواثق » الى صاحب « ارمنية » ان يساعدهم على تحقيق مهمتهم عن طريق بلاده .

(٢) بوزن : أمير — مملكة بين بلاد اللان وباب الأبواب . بقرب ارمنية .

(٣) فيلان شاة : اقليم بآسيا الصغرى .

(٤) اقليم بين الموصل واربل .

الذى فى شعبة السد ، وذلك فى ستة أيام ، وفى تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية ، وهناك مدينة يدعى ملكها : (خاقان بن أكدش) وأهلها مسلمون لهم مساجد ومكاتب •

فسألونا : من أين أقبلنا ؟ •

فأخبرناهم : انا رسل أمير المؤمنين : (الواثق بالله) •

ثم سألونا عن أمير المؤمنين • أشيخ هو أم شاب ؟ •

فقلنا : شاب ، فعجبوا وقالوا ما سمعنا هذا قط !!

فسألناهم : من أين جاءكم الاسلام ومن علمكم ؟ •

فقالوا : وصل الينا منذ أعوام كثيرة ، من رجل راكب على دابة طويلة العنق ، طويلة اليدين والرجلين ، لهـا فى موضع صلبها حدبة فعلمنا أنهم يصفون الجمل — قالوا — : فنزل بنا فكلمنا بكلام فهمناه ، ثم علمنا شرائع الاسلام فقبلناها وعلمنا القرآن ومعانيه فتعلمناه وحفظناه •

الوصول الى السد ووصفه

قال سلام رئيس البعثة : ثم خرجنا بعد هذا الى السد لنبصره ، فسرنا عن المدينة نحو فرسخين فوصلنا السد ، فاذا جبل مقطوع بواد عرضه مائة وخمسون ذراعا ، وله فى وسط هذا الفناء باب من حديد طوله خمسون ذراعا ، قد اكتنفه عضادتان عرض كل منهما خمس وعشرون ذراعا ، والظاهر من ثخنها عشرة أذرع خارج الباب ، وكله مبنى بلبن الحديد مغيب

بالنحاس ، وارتفاع العضادتين خمســون ذراعا ، وعلى أعلى العضادتين (دروند حــديد (١)) طوله مائة وعشرون ذراعا ، و « الدروند » للعتبة العليــا ، وقد ركب منها على كل واحدة من العضادتين مقــدار عشرة أذرع ، ومن فوق « الدروند » بنيان متصــــل بلبن الحديد (٢) المغيب بالنحاس الى رأس الجبل ، وارتفاعه مد البصر ، فوقه شرافات حديد ، فى طرف كل شرافة قرنان ينثنى كل واحد منهما الى صاحبه !!!

وللباب مصراعان مغلقان ، عرض كل مصراع خمسين ذراعا فى ثخن خمسة أذرع ، وقائمتان فى دوارة على قدر (الدروند) وعلى الباب (قفل) طوله سبعة أذرع فى غلظ ذراع ، وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعا ، وفوق القفل بخمسة أذرع (غلق) طوله أكثر من طول القفل ، وعلى الغلق مفتاح طوله ذراع ونصف ، وله اثنتــا عشرة ســنا ، كل سن كمدق الهاون (٣) ، وهذا المفتاح معلق فى سلســلة ضــخمة ملحومة بالباب ، طولها ثمانى أذرع فى استدارة أربعة أشبار ، والحلقة التى بها السلسلة مثل : حلقة المنجنيق •

---

(١) الدروند : هو المعروف عند أهل الصنعة بالعتبة .

(٢) المقصود من لبن الحديد : المكعبات التى بنى بها السد وكانت من الحديد .

(٣) يعنى : أن المفتاح له أسنان ضخمة ، كل سن كيد الهاون (الهون) وما ذكرناه من قبل هو المعانى العربية للالفاظ الفارسية التى جاءت فى كلام « سلام » الترجمان •

ثم ذكر أن فى جانبى الباب حصنين ، وأن فى أحد الحصنين آلة البناء التى بنى بها السد ، من قدور الحديد والمغارف التى كان يغرف الحديد المذاب فى تلك القدور .

وذكر أن تلك القدور كقدور الصابون ، أى كالقدور التى يصنع فيها الصابون ، وذكر أنه شاهد فى هذا الحصن بقايا لبن الحديد (أى مكعباته) التى بنى بها وقد التصق بعضها ببعض من الصدأ ، وطول اللبنة ذراع ونصف فى ارتفاع شبر .

قال سلام : فكتبت هذه الصفات كلها ثم انصرفنا مع الأدلاء من تلك الحصون ، فأخذوا بنا على ناحية خراسان وجعل يذكر أسماء البلاد التى مر بها ، حتى وصل بمن معه الى (سر من رأى) بعد مغيبهم فى سفرتهم هذه ثمانية وعشرين شهرا .

قال ابن خرداذبه : فهذا جميع ما حدث به سلام !!

وذكر القرطبى فى تفسيره : أن ارتفاع السد مائتا ذراع وخمسون ذراعا : ا هـ .

ويبدو أن السد الذى شاهده سلام ومن معه فى رحلتهم هذه هو سد : (باب الأبواب) بناحية أرمينيا ، وهو سد مشهور يقع بين جبلى أرمينيا وأذربيجان ، ولكن هذا السد العظيم لم يبنه الاسكندر المشهور : (بذى القرنين) ، بل بناه (كسرى أنوشروان) لأغراض تتعلق بالأمن والسلامة لاهل هذه المنطقة

ممن كانوا يغيرون عليهــــا ، وربمــا كان هؤلاء المغيرون هم الهنغوليون ، فهــم الذين أجلوا شعب الخزر الى شرق أوروبا اذ حملوهم بكثرة الغارات على الهجــرة اليهــا ثم الذوبان فى أهلها .

وهذا الشعب الهمجى الذى حبس بسد : (باب الأبواب) أطلق عليه (سلام الترجمان) شعب : (يأجوج ومأجوج) كما أطلق على هذا السد : (سد يأجوج ومأجوج) وذلك لأن هذا هو منتهى علمهــم وعلم الناس فى هذا الزمان ، فان الفتوحات الاســلامية وصلت الى هذه المناطق ، وعرف عن أهلها بعض الأخبار عن سد : (باب الأبواب) ، فظنوا أنه هو الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم لشبهه به فى أوصافه .

وما ذكره سلام : من أنه سأل بعض أهل هذه الجهة هل رأوا أحدا من يأجوج ومأجوج ؟ فأخبروه أنهم رأوا بعضهم على حائط السد ، ثم ألقتهم الريح فى الجهة التى جاءوا منها ، فلا يفيد أنهم هم : « يأجوج ومأجوج » فهم حديثو عهد بالاسلام ولا علم لهم بقصتهم ، ولا بمن بنى لهم هذا السد ، فأمرهم قد مضى فى عهد أجدادهم الأولين .

فالمعقول أنه ســألهم : هل رأوا أحدا ممن يحجبهم هذا السد ؟ :فأجابوه بأنهم رأوا بعضهم فوقه ، وأن الريح هوت بهم الى الجهة التى صعدوا منها ، فترجم السؤال والجواب بما فى ذهنه عن هذا السد وأهله .

والمحققون على أن سد : (يأجوج ومأجوج) الـــذى بناه ـــذو القرنين ـ كما جاء فى القرآن الكريم فى سورة الكهف ،هو الذى يقع بين الجبلين الواقعين بين (سمرقند والهند) ، وراء جيحون فى عمالة بلخ ، ويطلق عليه : (سد باب الحـــديد) فهو الذى بناه الاسكندر الملقب : (بذى القرنين) حين وصـــل فى فتوحاته الى هذه المنطقة ، بعد أن شكا له أهلها من غارات المغول والتتار عليهم ، وهؤلاء تمتد بـــلادهم من التبت والصين حتى المحيط المتجمد الشمالى ، وتنتهى غربا الى ما يلى بلاد التركستان بين خطى المعرض ٢٧ ـــ ٥٠ فى هضبـــات آسيـــا الوسطى ـــ والله تعالى أعلم •

هذا السـد جعله الله دكا

قال الله تعالى : « فاذا جاء وعـــد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا » وقد تحققت هذه النبوءة القرآنية ، فقـــد دك سد الصين ، واجتازه (تيمور لنك) بجيشه ، ومر به (شاه روح) وكان فى خدمته رجل ألمانى اسمه (سيلد برجر) ألف كتابا جاء فيه ذكر السد ، وكان ذلك فى القرن الخامس عشر •

كما جاء ذكر هذا السد فى رحلة : الأسبانى : (كلا فيجو) سنة ١٤٠٣ م وكان رسولا من ملك قشتاله بالأندلس الى تيمور لنك ، وقد تبين بدكه وخروج أهله الى ما كانوا عليه من الغزو والافساد فى الأرض وأنهم بشر مثل سائر الناس فى أجسادهم

وأطوالهم وصفاتهم البدنية ، وأن ما يروى عن صفاتهم من الطول والقصر وغير ذلك من الخرافات التى لا ينبغى لعاقل تصديقها •

وهذه الأمم معروف عنهم تاريخيا تجاوز افسادهم الى أطراف الأرض ، فقد انحدروا من مرتفعات آسيا الوسطى الى أوروبا وخربوها ، كما خربوا آسيـا الغربيـة التى بعث فيها الأنبياء وكانوا يحـذرون منهم أممهم ، وقـد سبق بيان ذلك باستيفاء فارجع اليه ان شئت •

نبذة فى تاريخ ذى القرنين وحكمته

بعد أن بينا قصـة : (ذى القرنين) التى ذكرها القرآن الكريم ، ورجحنا أنه هو « الاسكندر » •

وتحدثنا عن مكان سد : (يأجوج ومأجوج) ، وعن رحلة سلام الترجمان لكى يعرف خبره ويبلغه للخليفة : (الواثق بالله) رأينا استكمالا للفائدة أن نذكر نبذة عن هذا الملك العظيم تجلو بعض نواحى عظمته ، ويعرف بهـا منشؤه وحكمته وسياسته فى حروبه وفى رعيته •

كان الاسكندر يونانى الأصل من مدينة تسمى : (مقدونيا) وكان أبوه ملكا على هذا الاقليم من بلاد الروم ، واسم أبيه : (فيلبس) ويسميـه المؤرخون العرب (فيلفوس) ، فلما مات فيلبس خلفه على ملكه ولده (الاسكندر) وكانت الروم فى عهد أبيه متفرقة ومنقسمة الى دويلات من أثر حروبها مع الفرس

وغلبة الفرس عليها ، فشمر الفتى : (الاسكندر) عن ساعد الجد واستولى على جميع بلاد الروم ، وكان (دارا) ملك الفرس قد فرض على الروم خراجا يدفعونه له سنويا بحكم هزيمته لهم وتمزيقه لملكهم ، فلما اجتمع أمر الروم مع الاسكندر ، رفض أن يدفع الخراج لدارا ، فكتب اليه دارا يؤنبه على عدم دفعه الخراج ، وبعث اليه بصولجان وكرة وقفيز من سمسم ، وذكر له فى كتابه أنه صبى ، وأنه ينبغى له أن يلعب بالصولجان والكرة ويترك الملك ، فان لم يفعل ذلك بعث اليه بمن يأتى به فى وثاق ، وأخبره أن جنوده فى كثرة عددهم كحب السمسم الذى بعث به اليه .

فكتب اليه (الاسكندر) أنه استبشر وتيمن بما أرسله اليه من الصولجان والكرة ، فهو بشير بأن أمره سيئول اليه وأنه هو الذى سيسلمه صولجان ملكه ليديره هو بدلا منه ، وأن السمسم الذى بعث به اليه يشير الى أن مملكة الفرس التى سوف تئول اليه دسمة ، وبعث اليه بصرة فيها حب الخردل ، وكتب اليه أن مابعث به اليه قليل ، ولكنه مر حريف ، وأن جنوده مثله فلما وصل كتابه الى (دارا) استشار أصحابه ، فأشاروا عليه بالحرب لفساد قلوبهم نحوه ، فعندئذ ناجزه دارا القتال واستمرت الحرب بينهما سنة ثم انهزم الفرس وفتك بدارا رجلان ، قيل : انهما حاجباه بتآمر بين الاسكندر وبينهما ، وقيل: انهما رجلان من حرسه من أهل همذان ، حبا للراحة من ظلمه

وقد فعلا ذلك لما رأيا عسكره قد انهزم عنه ، ولم يكن ذلك بأمر الاسكندر ، فانه كان قد أمر مناديا ينادى عند هزيمة عسكر دارا أن يؤسر دارا ولا يقتل ، فلما علم بمقتله نزل اليه ومسح التراب عن وجهه ، وجعل رأسه فى حجره وقال له : اننى لم أهم بقتلك قط ، ولقد كنت أرغب بك يا شريف الأشراف وملك الملوك وحر الأحرار عن هذا المصرع فأوص بما أحببت ، فأوصاه أن يتزوج ابنته : (روشنك) ويرعى حقها ويعظم قدرها ، ويستبقى أحرار فارس ، ويأخذ له بثأره ممن قتله ، فنفذ (الاسكندر) ما أوصى به كله .

وكان أهل فارس أهل علم وحكمة ، فنقل (الاسكندر) كتبهم فى العلوم المختلفة وأخصها : علوم الفلك ، وأمر بترجمتها الى الرومية .

وبعد هلاك دارا جمع (الاسكندر) فى يده ملك العراق والشام والروم ومصر والجزيرة ، وكان له من الجند مليون وأربعمائة ألف ، منهم ثمانمائة ألف من الروم ، وستمائة ألف من جند (دارا) .

ثم قام بهدم حصون فارس وبيوت النيران ، واستعمل على مملكة الفرس من يثق بهم من الولاة ، واتجه بعد ذلك الى الهند فملكها .

من حيل الاسكندر فى حروبه

كان الاسـكندر ـ على صغر سنه ـ عظيم الدهاء واسع الحيلة ، ومن حيله فى حروبه أنه لما حارب دارا ، أمر منـاديا ينادى بين الصفين : يا معشر الفرس قد علمتم ما كتبتم الينا وما كتبنا اليكم من الأمان ، فمن كان منكم على الوفاء فليعتزل فانه يرى منا الوفاء ، فاتهمت الفرس بعضها بعضا واضطربوا ومال أمرهم الى الهزيمة حتى تمت •

ومن سعة حيلته فى حربه مع الهند ، أنه لما تلقاه ملك الهند بالفيلة ونفرت منها خيله ، تخلى عنهـم ، وأمر باتخاذ فيلة من نحاس وألبسها السلاح ، وجعلها مع الخيل حتى ألفتها ، ثم عاد الى الهند ، فخرج اليه ملك الهند ، فأمر الاسكندر بتلك الفيلة فملئت بطونها من النفط والكبريت ، وجـرت على العجل الى وسط المعركة ومعها جمع من رجـاله ، فلما نشبت الحرب أمر باشعال النار فى تلك الفيلة ، فلما حميت انكشف أصحابه عنها وغشيتها فيلة الهند ، فضربتها بخراطيمها ، فاكتوت بنارها وولت هاربة من المعركة ، فانهزم جيش الهند ، واستولى الاسكندر على تلك الامبراطورية العظيمة بأقل عناء ممكن ، وقتل ملكها وخرب بيوت الأصنام •

أرسطو مستشار الاسكندر

كان الاسكندر يستشير الفيلسوف الحكيم اليونانى : (أرسطاليس) فيما يهمه من أمور ، ومن ذلك أنه لما ملك بلاد فارس ، بعث اليه بكتاب قال فيه : انه رأى بايران رجالا ذوى رأى وصرامة وشجاعة وجمال وأنساب رفيعة ، وأنه انما ملكهم بالحظ والاتفاق ، وأنه لا يأمن — ان سافر عنهم — أنهم يجمعون أمرهم ويثبون عليه ، وأنه لايكفيه شرهم الا التخلص منهم بقتلهم •

فأجابه أرسطو : بأن قتلهم من الفساد والبغى الذى لاتؤمن عاقبته ، ولو قتلهم ، لكان ذلك سببا فى تعجيل الفتنة ضده ، لأنه وترهم فى غير حرب وغدر بهم •

وأشار عليه برأى — قال فيه انه أبلغ من قتلهم — ، وهو : أن يستدعى منهم أولاد الملوك ومن يصلح للملك ويقلدهم البلدان والأقاليم ، ويجعل كل واحد منهم ملكا على اقليم فتتفرق بذلك كلمتهم ويقع بأسهم بينهم ، ويجتمع أمرهم على المحبة والطاعة له ، ويرون أنفسهم صنيعة لانعامه ، ففعل الاسكندر ذلك ، فهم ملوك الطوائف ، وقيل : فى ملوك الطوائف غير ذلك •

ومن ذلك أنه كتب اليه : أن من خاصة الروم جماعة لهم

همم بعيدة ، ونفوس كبيرة وشجاعة ، وأنه يخافهم على نفسه ويكره قتلهم بالظنة •

فكتب اليه (أرسطو) : أن الوفاء من بعد الهمة وكبر النفس ، والغدر من دناءة النفس وخستها وخبثها ، فما دام هؤلاء بعيدى الهمة فانهم لايغدرون ، وأما شجاعتهم ونقص عقولهم فمن كانت هذه حاله فرفهه فى معيشته،واخصصه بحسان النساء ، فان رفاهية العيش تميت الشجاعة ، وتحبب السلامة ، واياك والقتل ، فانه زلة لا تستقال ، وذنب لا يغفر ، وعاقب بغير القتل تكن قادرا على العفو،فما أحسن العفو من القادر،وليحسن خلقك تخلص لك النية بالمحبة ، ولا تؤثر نفسك على أصحابك فليس مع الاستئثار محبة ، ولا مع المواساة بغضة •

الاسكندر وملك الصين

بعد أن استولى على الهند توجه الى الصين،فلما وصل اليها أتاه حاجبه فى الليل وأخبره بوصول رسول من ملك الصين ، فأذن بلقائه ، فلما حضر سلم وطلب الخلوة ، ففتشوه فلم يجدوا معه ما يخشى منه ، فأمر (الاسكندر) بخروج من كان عنده •

فقال هذا الرسول : أنا ملك الصين ، جئت أسألك عما تريده فان كان ممكنا نفذته وتركت الحرب •

فقال له (الاسكندر) : ما الذى آمنك منى حتى جئتنى وصارحتنى بأمرك ؟ •

فقال : علمت أنك عاقل حكيم ، ولم يكن بينى وبينك عداوة وأنت تعلم أنك ان قتلتنى لم يكن قتلى سببا لتسليم أهل الصين ملكى اليك ، ثم انك تتسبب بقتلى فى نسبة الغدر اليك ٠

فعلم (الاسكندر) أنه ملك عاقل حسن التصرف ٠

فقال له : أريد منك دخل المملكة ثلاث سنين عاجلا ، ثم فى كل سنة نصف الدخـــل ٠

قال : حينئذ أكون أول قتيل لمحارب ، وأول أكلة لمفترس ٠

قال : فان قنعت بدخل سنتين ٠

قال : يكون حالى أصلح قليلا ٠

قال : فان قنعت منك بدخل سنـــة ٠

قال : يبقى ملكى وتذهب لذاتـــى ٠

قال : فأنا أترك ما مضى وآخذ الثلث لكل سنة ، فـــكيف يكون حالك ؟ ٠

قال : يكون السدس للفقراء والمساكين ومصالح البلاد ، والسدس لى ، والثلث للعسكر ، والثلث لك ٠

قال : قـــد قنعت منك بذلك ٠

فشكره وعاد الى عســـكره ، فلما سمعوا بما حصل عليه فرحـــوا واغتبطوا ٠

فلما كان الغد خرج ملك الصين بعسكر عظيم أحاط بعسكر الاسكندر ، فركب (الاسكندر) والجند ، وظهر ملك الصين على الفيل وعلى رأسه التاج ٠

فقال له الاسكندر : أغدرت ؟ .

قال : لا ، ولكنى أردت أن تعلم أنى لم أطعك من ضعف ، ولكنى لما رأيت العالم العلوى مقبلا عليك ، أردت طاعته بطاعتك والقرب منه بالقرب منـــك .

فقال له الاسكندر : لا يسام مثلك الجزية ، فما رأيت بينى وبينك من يستحق الفضل والوصف بالعقل غيرك ، وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك ، وأنا منصرف عنك .

فقال له ملك الصين : فلست تخسر ، وبعث اليه بضعف ما كان قرره معه ، وسار (الاسكندر) عنه من يومه ، ودانت له عامـــة الأرضين فى المشرق والمغرب والتبت وغيرها .

كيف بنى سد يأجوج ومأجوج ؟

ذكر ابن الأثير فى كتابه (الكامل) : انه أمر أهل هذه المنطقة أن يحضروا له (زبر الحديد) ـــ أى : قطعه ـــ فأتوه بها ، فحفر الأساس حتى بلغ الماء ثم جعل الحديد والحطب طبقات بعضها فوق بعض ، حتى اذا ساوى بين الجبلين أشعل النار فى الحطب فحمى الحديد وأفرغ عليه القطر (النحاس المذاب) فتخلل بين قطع الحديد وألصق بعضه ببعض ، ودخل تراب الحطب المحرق فى النحاس المذاب .

ولا شك : أن ذلك يدل على عظم ما بلغه هذا الرجـــل من العلم والاقتدار على تحقيق ما يريد ، ولما فرغ من السد اتجه الى القطب الشمالـــى والشمس جنوبه ، والاقليـــم غارق فى الظلمات ، ثم قفل راجعا الى العراق .

وفاته ومدة ملكه وعمره

في طريقه الى العراق وافته منيته (بشهر زور) بعلة (الخوانيق) وعمره ست وثلاثون — كما جاء في بعض الروايات — ومدة ملكه أربع عشرة سنة ، وحنط جسده وحمل في تابوت الى أمه بالاسكندرية ، وكان قتله لدارا في السنة الثانية من ملكه ، وبنى عددا من المدن ، منها : (أصبهان ، وهراة ، ومرو ، وسمرقند ، والاسكندرية) وكان جلساؤه ومشيروه من حكماء : اليونان والفرس والهند وغيرهم ، فلما مات حزنوا عليه حزنا شديدا ، ورثوه بالمراثي المؤثرة — راجع ج ١ من تاريخ (الكامل) لابن الأثير في حديثه عن الاسكندر •

ان للبيت ربا يحميه

صاحب القليس يخفق في القضاء على الكعبة

كم من غاشم جبار ارتكب أعظم الجرائم فلم يعجل الله عقوبته ، بل أخره ليأخذه في دنياه أخذ عزيز مقتدر ، أو ليعاقبه في أخراه على ما قدمت يداه !!!

ولكن جبارا عنيدا قصد الكعبة ليهدمها فعجل الله عقوبته ولم يؤجله ، وأراه من العذاب ماليس له نظير في التاريخ ، وجعل قصته عبرة للمعتبرين ، وارهاصا لبعثة سيد المرسلين ، وتكريما للقبلة التي رضيها وشرعها للمسلمين •

أبرهة بن الصباح الأشرم

غلب على اليمن رجل حبشى اسمه : (أبرهة بن الصباح الأشرم) — وكنيته أبو يكسوم — وحين جاء موسم الحج رأى الناس يتأهبون لأداء المناسك بمكة ، ولايدخرون وسعا فى البذل والجهد ، ولايثنيهم عن رحلتهم الشاقة شيخوخة أو فقر ، لينعموا بالطواف حول البيت الذى بناه خليل الله : (ابراهيم) ، بمعونة ولده : (اسماعيل) ليكون مثابة للناس وأمنا .

فاشتعل قلب أبرهة حقدا وغيظا ، وعزم على بناء كنيسة كبرى يصرف العرب فى حجهم اليها ، فأمر بنقل الحجارة من قصر (بلقيس) — ملكة سبأ — الى صنعاء ، فنقلوا اليها الرخام المجزع ، والحجارة المنقوشة بالذهب ، وبنى كنيسة لم ير الناس مثلها ، وكتب الى النجاشى (ملك الحبشة) قائلا : انى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف اليها حج العرب ، وأطلق أبرهة على تلك الكنيسة اسم القليس (بقاف مضمومة ولام مشددة مفتوحة) .

فلما علم العرب ذلك غضب رجل من النساءة — احدى فصائل بنى فقيم بن عدى من بنى كنانة — فخرج حتى أتاها وأحدث فيها ، ولطخ قبلتها بحدثه ، ثم خرج ولحق بأرضه .

وقصدها رفقة من العرب ، فأوقدوا حولها نارا ، فحملتها الريح فأحرقتها .

فاستشاط أبرهة غيظـــا لذلك ، وأمر بتجهيز حملة تأديبية للعرب فى شخص أهل مكة حراس الكعبة وحماتها ، ثم خرج فى ستين ألفا من رجاله ، يتقدمهم فيل أطلقوا عليه اسم : (محمود) وكان فيلا عظيما مدربا على القتال أحسن تدريب •

تحمس العرب لقتاله

لما علم العرب بخروج أبرهة لهدم الكعبة ، وغزو أهل مكة حراسها ، عزموا على تعويقه وقتاله ، حماية للبيت الذى يفدونه بأرواحهم ، وتضامنا مع اخوانهم : أهل مكة •

فخـــرج اليه رجـــل من أشراف اليمن وملوكهم اسمه : (ذو نفر) وخرج معه من أطاعه من قومه ومن العرب ، فقاتلوه فهزمهم ، وأخذ (ذا نفر) أســـيرا ، حتى اذا كان بأرض خثعم عرض له (نفيل بن حبيب الخثعمى) بمن معه من قومه وغيرهم فقاتلوه فهزمهم (وأخذ نفيلا) أسيرا •

فلما مر بالطائف خـــرج اليه (مسعود بن معيب بن مالك الثقفى) فى رجـــال من ثقيف ، وأخبره أن البيت الذى يريده بمكة ، أما البيت الذى لديهم فهو بيت اللات ، وبعث معـــه (أبا رغال) ليدله على طريق مكة ، وكانت هـــذه خيانة منـــه وفجورا من أبى رغال •

فخـــرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمس — وهو موضع بطريق الطائف — فلمـــا نزل به هلك أبو رغال ودفن هناك ، فرجمت العرب قبره — كما رواه ابن اسحاق •

ثم بعث أبرهة وهو بالمغمس رجلا من الحبشة يقال له : (الأسـود بن مقصور) الى مكة ، فساق أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم ، وكان فيما أخذه مائتا بعير (لعبد المطلب) جد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان وقتئذ سـيد قريش ، فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحـرم بحـربه ، ثم عرفوا ألا طاقة لهم بذلك فكفوا •

وبعث أبرهة (حياطة الحميرى) الى مكة وقال له : قل لسيد هذا البلد ان الملك يقول: انى لم آت لحربكم ، بـل جئت لهدم هذا البيت ، فان لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة له بدمائكم فان هو لم يرد حربى فائتنى به •

فلما دخل حياطة مكة ، سأل عن بيت رئيسها ، فدلوه على بيت (عبد المطلب) ، فلما أخبره بما قاله أبرهة قال : هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم ، فان يمنعه منـه فهو بيتـه وحرمه ، وان يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه •

ثم انطلق عبد المطلب وفى صـحبته بعض بنيـه ، وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم ، فلما دخل على أبرهة ورأى ماله من جمال وجـلال أكرمه عن أن يجلس أدنى من مجلسـه ولكنه كره أن يراه جنده يجلسـه معه على عرشـه ، فنزل عنه وجلس على بساطه وأجلسه الى جنبه ، ثم قال لترجمانه :

قل له : ماحاجتك ؟ •

فقال حاجتى أن ترد على ابلى .

فقال لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ولكنك كلمتنى فى مائتى بعير وتركت الكلام عن البيت الذى يرتبط به دينك ودين آبائك مع أننى جئت لهدمه .

فقال عبد المطلب : انى رب الابل — أى صاحبها — وان للبيت ربا سيمنعه .

قال أبرهة : ماكان ليمتنع منى .

قال عبد المطلب : أنت وذاك .

فرد الابل على عبد المطلب ، فانصرف الى قريش فأخبرهم بما كان بينه وبين أبرهة ، وباستعداده الحربى الذى لاقدرة لهم على دفعه ، فتحرزوا فى شعف الجبال (١) ، ثم أخذ عبد المطلب بحلقة باب الكعبة ومعه نفر من قريش ، يدعون الله ويستنصرونه وقال وهو آخذ بالحلقة :

يارب لا أرجو لهم سواكا ... يارب فامنع عنهمو حماكا
ان عدو البيت من عاداكا ... فامنعهمو أن يخربوا فناكا

وقال شعرا آخر جاء فيه :

جروا جموع بلادهم ... والفيل كى يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم ... جهلا وما رقبوا جلالك
ان كنت تاركهم وكعبتنا ... فأمر ما بدالك

---

(١) شعف الجبال : رءوسها .

ثم أرسل الحلقة ، وانطلق هو ومن معه الى شغف الجبال ينتظرون ما يحدثه أبرهة بمكة اذا دخلها ، فلما أصبح تهيأ للدخول .

قاذفات السجيل

عبأ أبرهة جيشه ، وهيأ الفيل لدخول مكة ، ولكن الفيل أدبر ولم يقبل عليها فضربوه وأوجعوه ، فبرك وأبى أن يقوم فوجهوه الى اليمن ، فقام واتجه اليها مسرعا ، ثم وجهوه الى الشام ففعل مثل ذلك ، ثم وجهوه الى مكة فبرك ولم يستجب الى ما أرادوه منه ، فسقوه خمرا ليذهب تمييزه ، فزاد اصرارا على الاباء والامتناع .

وحينئذ أرسل الله عليهم طيرا مثل الخطاطيف قدمت من ناحية البحر ، ومع كل طائر ثلاثة أحجار ، حجر فى منقاره وحجران فى رجليه كأمثال الحمص والعدس لا تصيب أحدا منهم الا هلك ، فخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى جاءوا منه فأنشد نفيل الذى مر ذكره :

أين المفر والا له الطالب . والأشرم المغلوب ليس الغالب

وجعلوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون فى كل مكان وأصيب أبرهة فى جسده ، فحمله من سلم منهم حتى جاءوا به الى صنعاء ، وكانت أعضاؤه تسقط عضوا عضوا ولحمه يتساقط قطعة قطعة حتى هلك ، وفى ذلك يقول ابن الزبعرى :

سائل أمير الجيش، عنا ما ترى ولسوف ينبى الجاهلين عليمها
ستون ألفا لم يئوبوا ارضهم بل لم يعش بعد الاياب سقيمها

وعن عائشة رضى الله عنها : أدركت قائد الفيــل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان الناس ٠

وعن عكرمة : أن من أصابه الحجر أصيب بالجــدرى وهو أول جدرى ظهر — أى بأرض العرب — ٠

ويروى : أن عبد المطلب أرسل أحد بنيه ليستطلع خبر القوم ، فلما عاد أخبره أن القوم هلكوا جميعا ، فخرج أهل مكة فأخذوا أموالهم غنيمة ، وقال عبد المطلب :

أنت منعت الجيش والأفيالا وقد رعــوا بمكة الأجبــالا
وقد خشــينا منهم القتــالا وكل أمر منهمو معضــالا
شكرا وحمدا لك ذا الجلالا

وفى قصة الفيل وأصحابه يقول الله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل (١) ترميهم بحجارة من سجيل (٢) ، فجعلهم كعصف مأكول (٣) » ٠

(١) جماعــات .
(٢) طين متحجر .
(٣) كورق زرع اكله الدود

ولم يرو التاريخ واقعة كهذه ، فكم من مقدسات اعتدى عليها أهـل البغى ولم يعاجلهم الله بالعقوبة ، اسـتدراجاً وامهالا حتى يأخذهم بظلمهم بعد حين أو يرجئهم ليوم الحساب أما أمر الكعبة : فكان العقاب على قصدها بالسوء فوريا ، وبتلك الصورة المفزعة ، لأنهـا بعد زمن يسير ستكون قبلة لخير أمة أخرجت للناس ، وهى أمة محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

فقد ولد صلى الله عليه وسلم بعد حادثة الفيل بخمسين يوما (١) ، فكانت ارهاصـا لنبوته ، وتشريفا لمقدمه ، وتعظيما لمقام قبلته وأمته « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

والحمد لله رب العالمين

---

(١) هـذا هو رأى الأكثرين . كما نقله النبهانى فى كتابه : « الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية » . ص ٢٧ .

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦	١٨	ملاين	ملايين
٢٣	٧	فلقــد	فلو
٣٦	٧	ومصلحاء	وصلحاء
٤٢	٩	أهم	أعــم
١٢٣	٥	يسبب	بسبب
١٢٤	١٠	الحيكم	الحكيم
١٣٤	١٥	أن	ان
١٦٢	٨	ملكتا	ملكنا
١٨٧	١٤	حمئة	حمأة
١٨٨	٥	حامئة	حامية
١٩٣	١٢	لفتك	لغتك
٢٠٧	٨	خمسين	خمسون

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع / ٤١٤٣ / ١٩٨٠

الكتاب القادم

الجهاد فى الاسلام

منهج وتطبيق

للدكتور رءوف شلبى

الثمن ٢٥ قرشا

طبع بمطابع الأزهر